تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السابع والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء السابع والعشرون

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ
مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا
غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ (٣٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الخطب : الشأن الخطير ؛ أى فما شأنكم الذى أرسلتم لأجله سوى البشارة ، إلى قوم مجرمين : هم قوم لوط ، من طين: أى من طين متحجر، وهو السجيل، مسومة : أى معلّمة من السّومة وهى العلامة ، للمسرفين : أى المجاوزين الحد فى الفجور ، من المؤمنين : أى ممن آمن بلوط ، غير بيت : أى غير أهل بيت ؛ والمراد بهم لوط وابنتاه ، آية : أى علامة دالة على ما أصابهم من العذاب .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا غير مرة إن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين نظروا إلى العدّ اللفظى ولم يُعْنَوْا بالنظر إلى الترتيب المعنوى ، ومن ثم تجد جزءا قد انتهى وبدئ بآخر أثناء القصة كما هنا .

فبعد أن بشر الملائكةُ إبراهيم عليه السلام بالغلام — سألهم ما شأنكم وما الذى جئتم لأجله ؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم بحجارة من سجيل بها علامة تدل على أنها أعدت لإهلاكهم ، ثم نأمر من كان فيها من المؤمنين بالخروج من القرية حتى لايلحقهم العذاب الذى سيصيب الباقين ، وسنترك فيها علامة تدل على ما أصابهم من الرجز جزاء فسوقهم وخروجهم من طاعة ربهم .

الإيضاح

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال إبراهيم لهؤلاء الملائكة : ما شأنكم ؟ وفيم أرسلتم ؟ وجاء فى سورة هود : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

فأجابوه عما سأل :

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين) أى قالوا له : إنا أرسلنا إلى قوم لوط بالعذاب لإجرامهم ، وسنلقى عليهم حجارة من طين مطبوخ كالآجرّ وهى فى الصلابة كالحجارة ، وفيها علامات أعدت لهلاك المسرفين .

ولما أراد سبحانه أن يهلك المجرمين ميّز عنهم المؤمنين وأبعدهم منهم كما قال :

(فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)

أى بعد أن ذهبت رسلنا إلى قوم لوط ووقعت بينهم و بينهم محاورات لم يدْعُ الحال إلى ذكرها هنا — أخرجوا من كان فى القرى من المؤمنين تخليصا لهم من العذاب ولم يجدوا فيها سوى بيت واحد أسلم وجهه لله ظاهرا و باطنا ، وانقاد لأوامره واجتنب نواهيه ، وهو بيت لوط ابن أخى إبراهيم عليه السلام .

عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر .

قال أبو مسلم الأصفهانى : الإسلام الاستسلام لأمر الله والانقياد لحكمه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » .

وقد أوضح الحديث الشريف الفرق بينهما ، فجاء فى الصحيحين وغيرهما من طرق عدة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الإسلام فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتحج البيت،وتصوم رمضان. وسئل عن الإيمان؟ فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره» .

(وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أى وجعلناها عبرة بما أنزلنا بها من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة وهى بحيرة طبرية ، لتكون ذكرى لمن يخشى الله و يخاف عذابه .

وفى الآية إيماء إلى أن الكفر متى غلب والفسق إذا انتشر لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، أما إذا كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون و يفجرون ، فإن الله لا يأخذ الكثرة الصالحة بذنب العدد القليل من الفاجرين .

وَفِى مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ

وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦).

شرح المفردات

بسلطان مبين : أي بحجة واضحة هي معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ، والركن: ما يركن إليه الشيء و يتقوّى به ، والمراد هنا جنوده وأعوانه ووزراؤه كما جاء في سورة هود «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» ، فأخذناه : أي أخذ غضب وانتقام ، نبذناهم : أي طرحناهم ، في اليمّ : أي في البحر ، مليم : أي آت بما يلام عليه ، والعقيم : أي التي لاخير فيها ولا بركة ، فلا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا ، سميت : عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، الرميم : البالي من عظم ونبات وغير ذلك ، فعتوا : أي فاستكبروا عن الامتثال ، والصاعقة: نار تنزل بالاحتكاكات الكهربية، منتصرين: أي ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ممن أهلكهم ، فاسقين : أي خارجين من طاعة الله ، متجاوزين حدوده .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر ما كان من قوم لوط من الفسوق والعصيان ، وما أصابهم من الهلاك جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات تسلية لرسوله على مايرى من قومه — عطف على ذلك قصص جمع آخرين من الأنبياء لقوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لقى هـذا الرسول الكريم ، فحقت على أقوامهم كلمة ربهم ونزل بهم عذاب

الاستئصال وصاروا كأمس الدابر عبرة ومثلا للآخرين ، فذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون بشيرا ونذيرا فأبى واستكبر واعتز بقوته وجنده ، وقال أنا ربكم الأعلى ، فأغرق هو وقومه فى البحر. وأرسل شعيبا إلى عاد فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . وأرسل صالحا إلى ثمود فكذبوه فأخذتهم الصاعقة ولم تبق منهم أحدا ، و بعث نوحا إلى قومه فلم يستجيبوا لدعوته فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .

الإيضاح

(وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) أى وفى قصص موسى عبرة لقوم يعقلون ، إذ أرسلناه إلى فرعون بحجج ظاهرة وآيات باهرة، فأعرض ونأى وكذب بما جاء به معتزا بجنده وقوته وجبروته ، وقد بلغ الأمر به أن قال: أنا ربكم الأعلى ، وقال حيناً لقومه فى شأن موسى : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » ، وحيناً آخر «إِنَّهُ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » . وما مقصده من هذا إلا صرفهم عن النظر والتأمل فيما جاءه به من الآيات ، خوفا على ملكه أن ينهار ، وعلى دولته أن يلحقها الدمار ، وإبقاء على ماله من النفوذ والسلطان فى البلاد .

ثم ذكر جزاءه هو وقومه على ماصنع فقال :

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ وهو مليم) أى فألقينا فرعون وجنوده فى البحر وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

وفى هذا إيماء إلى عظمة القدرة على إذلال الجبابرة وسوء عاقبتهم جزاء عتوهم واستكبارهم وعصيانهم أمر خالقهم .

ثم ذكر قصص عاد فقال :

(وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى وفى عاد آية لكل ذى لبّ ، إذ أرسلنا عليهم ريحا صرصرا عاتية

لم تبق منهم ديّارا ولا نافخ نار ، ولا تركت شيئا من الأبنية والعروش إلا جعلته كالشيء الهالك البالى .

وبعدئذ ذكر قصص ثمود فقال :

(وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) أى وفى ثمود عظة لمن تدبر وفكر فى آيات ربه ، إذ قال لهم نبيهم : « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » ثم يحل بكم من العذاب مالا قِبَل لكم به ، فكذبوه واستكبروا وعتوا عن أمر ربهم فأرسل عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم جميعا وهم ينظرون إليها — جزاء ما اكتسبت أيديهم من الآثام ، وارتكاب الخطايا والأوزار .

(فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) أى فما استطاعوا هربا ولم يجدوا مفرّا ولا نصيرا يدفع عنهم عذاب الله .

ثم ذكر موجزا لقصص قوم نوح فقال :

(وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) أى وأهلكنا قوم نوح بالطوفان قبل هؤلاء بسبب فسقهم وفجورهم وانتهاكهم حرمات الله .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) .

شرح المفردات

الأيد والآد: القوة ، لموسعون : أى لذو سعة بخلقها وخلق غيرها؛ من الوسع بمعنى الطاقة ، فرشناها : أى بسطناها ومهدناها من مهدت الفراش إذا بسطته ووطأته ،

وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها ، ومن كل شىء : أى ومن كل جنس من الحيوان ، زوجين : أى ذكر وأنثى ، ففروا إلى الله : أى اعتصموا بحبل الله وأقروا بوحدانيته ، إنى لكم منه نذير مبين : أى إنى لكم من عقابه منذر ومخوّف .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت الحشر وأقام الأدلة على أنه كائن لامحالة — أرشد إلى وحدانية الله وعظيم قدرته ، فبين أنه خلق السماء بغير عمد ، وبسط الأرض ودحاها ، لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان ، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا وأنثى ، ليستمر بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله فناء العالم ، ثم أمرهم أن يعتصموا بحبل الله وأنذرهم شديد عقابه ، وحذرهم أن يجعلوا مع الله نِدًّا وشريكا .

الإيضاح

(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) أى ولقد بنينا السماء ببديع قدرتنا وعظيم سلطاننا ، وإنا لقادرون على ذلك لايمسنا نصب ولا لغوب .

وفى ذلك تعريض باليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع مستلقيا على عرشه .

(والأرض فرشناها) أى ومهدنا الأرض وجعلناها صالحة لسكنى الإنسان والحيوان ، وجعلنا فيها الأرزاق والأقوات من الحيوان والنبات وغيرهما مما يكفل بقاءهما إلى حين ، ووضعنا فيها من المعادن فى ظاهرها وباطنها مافيه زينة لكم ، فتبنون المساكن من حجارتها ، وتتخذون الحلىّ من ذهبها وفضتها وأحجارها الكريمة ، وتصنعون آلات الحرب والسفن والطائرات من حديدها ومعادنها الأخرى .

وفى الآية إشارة إلى أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء ، لأن بناء البيت يكون قبل الفرش، وهذا مايثبته العلم الحديث الآن ، وقد تقدم ذكر ذلك غير مرة.

ثم مدح سبحانه نفسه على ماصنع فقال :

(فنعم الماهدون) أى فنعم مافعلنا ، وما أجمل ماخلقنا ، مما فيه عظة لمن يتذكر ويتدبر .

(ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) أى وإنا خلقنا لكل ماخلقنا من الخلق ثانيا له ، مخالفا له فى مبناه والمراد منه ، وكل منهما زوج للآخر ، فخلقنا السعادة والشقاوة، والهدى والضلال ، والليل والنهار، والسماء والأرض، والسواد والبياض — لتتذكروا وتعتبروا فتعلموا أن الله ربكم الذى ينبغى لكم أن تعبدوه وحده لاشريك له — هو الذى يقدر على خلق الشىء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شىء ، لا مالا يقدر على ذلك .

(ففرّوا إلى الله) أى فالجئوا إلى الله واعتمدوا عليه فى جميع أموركم ، واتبعوا أوامره ، واعملوا على طاعته ، ثم علل الأمر بالفرار إليه بقوله :

(إنى لكم منه نذير مبين) أى إنى لكم نذير من الله أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه الذى أحله بهؤلاء الأمم التى قص عليكم قصصها، وإنى مبيّن لكم مايجب عليكم أن تحذروه .

ثم ذكر أعظم مايجب أن يفر المرء منه ، وهو الشرك فقال :

(ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) أى ولا تجعلوا مع معبودكم الذى خلقكم معبودا آخر سواه ، فإن العبادة لاتصلح لغيره .

ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنى لكم منه نذير مبين) أى إنى لكم نذير ومخوف من عقابه على عبادتكم غيره .

ونحو الآية قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) .

شرح المفردات

فتول عنهم : أى أعرض عن جدلهم ، وذكّر : أى دم على التذكير والموعظة ، إلا ليعبدون : أى إلا لآمرهم بعبادتى لا لاحتياجى إليهم ، المتين : أى الشديد القوة، ذنوبا : أى نصيبا من العذاب ، وأصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أصحابهم: أى نظرائهم ، فويل للذين كفروا : أى هلاك لهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين فى قول مختلف مضطرب لايلتئم بعضه مع بعض ، فبينماهم يقولون : خالق السموات والأرض هو الله إذا بهم يعبدون الأصنام والأوثان ؛ وطورا يقولون محمد ساحر ، وطورا آخر يقولون هو كاهن إلى نحو ذلك .

قفّى على ذلك بأن ذكر أن قومه ليسوا بدعا فى الأمم ، فكما كذبت قريش نبيها ذلك فعلت الأمم التى كذبت رسلها ، فأحل الله بهم نقمته كقوم نوح وعاد وثمود، ثم عجّب من حالهم وقال : أتواصى بعضهم مع بعض بذلك ، ثم قال لا بل هم قوم طغاة متعدّون حدود الله لا يأتمرون بأمره ولا ينتهون بنهيه ، ثم أمر رسوله أن يُعْرِض عن جدلهم ومرائهم ، فإنه قد بلّغ ما أُمر به ولم يقصر فيه ، فلا يلام على ذلك ، وأن يذكّر من تنفعه الذكرى ولديه استعداد لقبول الإرشاد والهداية ، ثم أردف هذا بأن ذكر أنه ماخلق الجن والإنس إلا ليأمرهم ويكلفهم بعبادته ، لا لاحتياجه إليهم فى تحصيل رزق ولا إحضار طعام ، فالله هو الرزاق ذو القوة . ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم السالفة ، فأولى لهم ألا يستعجلوه بقولهم : «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ، فقد حقت عليهم كلمة ربك فى اليوم الذى يوعدون ، وسيقع عليهم من العذاب ما لا مردّ له ، ولا يجدون له دافعاً .

الإيضاح

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) أى كما كذبك قومك من قريش وقالوا ساحر أو مجنون — فعلت الأمم التى كذبت رسلها من قبلهم وقالوا مثل مقالتهم ، فهم ليسوا ببدع فى الأمم ، ولا أنت ببدع فى الرسل ، فكلهم قد كُذِّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم على احتمال الأذى والإعراض عن جدلهم ، فإنهم قد أبطرتهم النعمة وغرّهم الإمهال ، فلا تجدى فيهم العظة ولا تنفعهم الذكرى .

ثم تعجب من إجماعهم على إنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

(أتواصوا به ؟) أى أأوصى أولهم آخرهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك منهم ؟

ثم عدل عن أنَّ الذى جمعهم على هذا القول هو التواصى ، إلى أن الذى جمعهم على ذلك هو الطغيان فقال :

(بل هم قوم طاغون) أى بل الذى جمعهم على ذلك هو الطغيان وتجاوز حدود الدين والعقل ، فقال متأخرهم مثل مقالة متقدمهم .

ثم سلى رسوله بقوله :

(فتول عنهم فما أنت بملوم) أى فأعرض عنهم أيها الرسول ، ولا تأسف على تخلفهم عن الإسلام فإنك لم تأل جهدا فى الدعوة ، وهم مازادوا إلا عتوا واستكبارا ، وطغيانا وإعراضاً .

(وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) أى دم على العظة والنصح ، فإن الذكرى تنفع من فى قلوبهم استعداد للهداية والرشاد .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى وجماعة من طريق مجاهد عن على كرم الله وجهه قال : لما نزلت « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة، إذ أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنا ، فنزلت « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » فطابت أنفسنا .

وبعد أن بين حالهم فى التكذيب ذكر سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الذى خلقهم للعبادة بقوله :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أى وما خلقتهم إلا ليعرفونى ، إذ لولا خلقهم لم يعرفوا وجودى ولا توحيدى ، يرشد إلى ذلك ما جاء فى الحديث القدسى « كنتُ كنزا مخفيا فأردت أن أعْرَف ، فخلقت الخلق فبى عرفونى » قاله مجاهد ، وروى عنه أيضا أن المعنى: إلا لآمرهم وأنهاهم، ويدل عليه قوله : « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » واختاره الزجاج ،

ويرى جمع من المفسرين أن المعنى : إلا ليخضعوا لى ويتذللوا ، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله ، متذلل لمشيئته ، منقاد لما قدره عليه ، خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لايملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا .

وهذه الجملة مؤكدة للأمر بالتذكير وفيها تعليل له ؛ فإن خلقهم لما ذكر يدعوه إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ .

ثم ذكر أن شأنه مع عبيده ليس كشأن السادة مع عبيدهم فقال :

(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى إننى ما أريد أن أستعين بهم لجلب منفعة ولا دفع مضرة ، فلا أصرّفهم فى تحصيل الأرزاق والمطاعم كما يفعل الموالى مع عبيدهم .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) أى إنه تعالى غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ؛ لأنه خالقهم ورازقهم ، وهو ذو القدرة والقوة الغالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون .

روى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى : يابن آدم تفرغْ لعبادتى أملأْ صدرك غنى، وأسدّ فقرك ، وإلاّ تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسدّ فقرك » .

ولما أقسم سبحانه على الصدق فى وعيدهم — أخبر بإيقاع هذا الوعيد بهم يوم القيامة فقال :

(فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم) أى فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ماخلقوا له من العبادة ، وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله نصيبا من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التى كذبت رسلها .

(فلا يستعجلون) أى فلا يطلبوا منى أن أعجل بالإتيان به ، فإنى لا أخاف

الفوت ، ولا يلحقنى عجز ، وهذا جواب عن قولهم : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ونحو الآية قوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .

(فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) أى فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذى وُعِدوه يوم القيامة حين لاتغنى نفس عن نفس شيئا ولاهم ينصرون .

خلاصة ماتضمنته السورة الكريمة

(١) دلائل البعث من العجائب الطبيعية والعلوم النفسية .

(٢) جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة .

(٣) أخبار الأمم السالفة التى كذبت رسلها .

(٤) تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى قومه .

(٥) الفرار إلى الله من هذه الدنيا المحفوفة بالمخاطر .

(٦) النهى عن الإشراك بالله .

(٧) إخبار رسوله بأن قومه ليسوا ببدع فى التكذيب بك فقد كذب رسل من قبلك .

(٨) أمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين .

(٩) إخباره بأن الله ماخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه .

(١٠) وعيد الكافرين بأن العذاب سيحل بهم يوم القيامة .

(١١) إن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذبين .

سورة الطور

هى مكية وعدة آياتها تسع وأربعون ، نزلت بعد السجدة .

عن أم سلمة « أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور » أخرجه البخارى وغيره .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إن فى ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .

(٢) إن فى نهاية كل منهما وعيدا للكافرين .

(٣) إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التى تتعلق بالمعاش والمعاد ، ففى الأولى أقسم بالرياح الذاريات التى تنفع الإنسان فى معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذى أنزل فيه التوراة النافعة للناس فى معادهم .

(٤) فى كل منهما أمر النبى بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف .

(٥) تضمنت كل منهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعانى المتشابهة بين السورتين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ

يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْلاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٦)

شرح المفردات

الطور بالسريانية : الجبل، والمراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والمراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن والتوراة والإنجيل ، والمسطور : أى المكتوب على طريق منظم ، فالسطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والرّق : (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه ، والمنشور: المفتوح الذى لاختم عليه ، والبيت المعمور: هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين، والسقف المرفوع : هو السماء ، والمسجور : أى الموقد المحمى،من سجر النار أى أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديما، وقد أشارت إليه الأحاديث ، فعن عبد الله بن عمر : «لايركبنّ رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » .

وقد أثبت علماء طبقات الأرض (الجيلوجيا) أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة؛ أى إن نسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها كنسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل ، فنحن الآن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السد عليه ، ومن حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى الزلازل والبراكين كبركان ويزوف الذى هاج بإيطاليا سنة ١٩٠٩ م وابتلع مدينة مسّينا ، والزلزلة التى حدثت باليابان سنة ١٩٢٥ م وخربت مدنا بأ كملها .

وتمور : أى تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المَوْر التردد فى الذهاب والمجىء ، وقد يطلق على السير مطلقا كما قال الأعشى :

كأن مِشْيتها من بيت جارتها مَوْرُ السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَل

وأصل الخوض : السير فى الماء ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل ، كالإحضار فإنه عام فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الإحضار للعذاب ، يدعّون : أى يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة الدالة على كمال قدرته وبديع صنعته ، وعدّ منها أماكن ثلاثة : الطور والبيت المعمور والبحر المسجور - لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للخلوة بربهم ، والخلاص من الخلق لمناجاة الخالق ، فانتقل موسى إلى الطور وخاطب ربه وقال « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » وقال « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » وانتقل محمد إلى البيت المعمور وناجى ربه وقال «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ، وكلم يونس ربه فى البحر وقال : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وقرن الكتاب بالطور لأن موسى كان ينزل عليه الكتاب وهو به ، وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بكل هذا على أن العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون فى الباطل ويتخذون الدين هزوا ولعبا ، فيدفعون إلى النار دفعا عنيفا ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبون ، ادخلوها وقاسوا شدائدها ، وسواء عليكم أجزعتم أم صبرتم مالكم منها مهرب ولا خلاص .

الإيضاح

(والطور . وكتاب مسطور . فى رقّ منشور) أقسم سبحانه بهذا الجبل العظيم الشأن الذى كلم فوقه موسى وأنزل عليه التوراة التى كتبت بنظام بديع مرتب الحروف فى رق منشور ، يسهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام ، وآداب وأخلاق .

(والبيت المعمور) أى والكعبة التى يعمرها عشرات الآلاف الذين يُهْرَعون إليها كل عام من أرجاء المعمورة ، وينسلون إليها من كل حدَب ، كما يعمرها المجاورون لها تبركا بالعبادة فيها ، وطلبا لقبولها عند ربهم .

(والسقف المرفوع) أى والعالم العلوى وما حوى من شموس وأقمار ، وكواكب ثابتة وسيارات ، وما فيه من عرشه وكرسيه وملائكته الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وما فيه من عوالم لايحصى عدتها إلا هو ، ومن جنود لايعلم حقيقتها إلا من ذرأها كما قال « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ » .

(والبحر المسجور) أى والبحر المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع ماعلى الأرض ، ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات ، فيفسد نظام العالم وتعدم الحكمة التى لأجلها خلق .

وقد يكون المعنى — والبحر الموقد فى باطن الأرض بمنزلة التنور المحمى وقد بينا هذا فيما سبق .

ثم ذكر ما أقسم عليه فقال :

(إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع) أى إن عذاب يوم القيامة لمحيط بالكافرين المكذبين بالرسل ، لايدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهربا ، جزاء ما دنّسوا به أنفسهم من الشرك والآثام ، ودسّوا به أرواحهم من التكذيب بالرسل واليوم الآخر .

(يوم تمور السماء مورا) أى ليس للعذاب دافع فى ذلك اليوم الذى ترتجّ فيه السماء وهى فى أماكنها وتتحققون أنه لا مانع من عذاب الله ولا مهرب منه .

(وتسير الجبال سيرا) أى وتزول الجبال من أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب ، وتطير فى الهواء ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف) ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا كما دل على ذلك ما جاء فى سورة النمل .

والحكمة فى مَوْر السماء وسير الجبال ـ الإعلام والإنذار بأن لارجوع ولاعودة إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة .

ثم بين من سيقع به العذاب حينئذ فقال :

(فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون) أى فإذا حدث ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فهلاكٌ يومئذ للمكذبين الذين يخوضون فى الباطل ويندفعون لاهين ، لايذكرون حسابا ، ولا يخافون عقابا .

(يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعًّا) أى يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعا عنيفا .

فإذا دَنَوْا منها قال لهم خزنتها تقريعا وتوبيخا :

(هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى هذه النار التى تشاهدونها هى التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، وتكذيبهم بها تكذيب للرسول الذى جاء بخبرها ، وللوحى الناطق بها .

ثم تهكم بهم وأنّبهم فقال :

(أفسحْر هذا أم أنتم لاتبصرون ؟) قد كان المشركون فى الدنيا ينسبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم أنه يسحر العقول ويغطى على الأبصار ، فأنّبهم على ما قالوا مستهزئا بهم وقال لهم : هل ما ترونه بأعينكم مما كنتم تنبئون به فى الدنيا من

العذاب ـ حق ، أو سحرتم أيضا كما كان يفعل بكم محمد فى الدنيا ، أو قد غُطِّيت أبصاركم فلا ترى شيئا ؟ بلى إنه لحق فلم تُسْحَر أعينكم ولم تُغَطَّ أبصاركم .

والخلاصة — هل فى المرئى شك أو فى أبصاركم علل ؟ لا واحد منهما بموجود ، فالذى ترونه حق .

(اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم) أى إذا لم يمكنكم إنكارها ، وتحقق أنها ليست بسحر ، ولا خلل فى أبصاركم فاصلوها ، وفى قوله : فاصبروا أولا تصبروا بيان لعدم الخلاص ، وانتفاء لعدم المناص ؛ فإن من لا يصبر على شىء يحاول دفعه عنه ، إما بإبعاده عنه ، وإما بمحقه وإزالته ؛ ولا شىء من ذلك بحاصل يوم القيامة ـ إلا أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، فإن المعذب فيها إن صبر انتفع بصبره إما بالجزاء فى الآخرة وإما بالحمد فى الدنيا فيقال ما أشجعه وما أقوى قلبه ، وإن جزع ذم وقيل فيه يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما فى الآخرة فلا مدح ولا ثواب على الصبر .

ثم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى إنما تستوفون جزاء أعمالكم فى الدنيا ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» بل يجازى كل أحد بعمله ، وإذا كان الجزاء واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء .

والخلاصة — إن الجزاء محتم الوقوع لسبق الوعيد به فى الدنيا على ألسنة الرسل ، ولقضاء الله به بمقتضى عدله ، فالصبر وعدمه سيان حينئذ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

شرح المفردات

فاكهين : أى طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، وقاهم : أى حفظهم ، والطعام الهنيء : مالايلحق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تُخَمَة ولا سقم ، وزوّجناهم : أى قرناهم ، والحور : واحدتهن حوراء ، والحور : اسوداد المقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أى واسعة العينين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذى لا دافع له ولا مهرب منه ـ ذكر مايتمتع به المؤمنون فى ذلك اليوم من صنوف اللذات فى المساكن والمآكل والمشارب والفُرُش والأزواج ، على حسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب ليتم أمر الترغيب بعد الترهيب حتى يكون المرء بين عاملين عامل لرهبة من بطش ربه والرغبة فى رحمته ، وكلاهما لاغنى المرء عنه ، ليكمل صلاحه ، ويرعوى عن غيه ، ولا يقنط من رحمة ربه .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم) أى إن الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة فى السر والعلن وأدّوا فرائضه ، وتحلوا بآداب دينه ، وانتهوا عن معاصيه ، ولم يدنسوا أنفسهم بالآثام ، ولم يدسّوا أرواحهم بالذنوب ، يجازيهم ربهم جزاء وفاقا بجنات يتنعمون فيها ويجدون ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال فى الدنيا ، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها ، وما صبروا عليه من مكارهها ، ابتغاء رضوانه ، وهم فيها قريرو الأعين طيبو النفوس ، لايشغلهم شاغل ، ولا يجدون همًّا ولا نصبا ، ولا يكدر صفو عيشهم مكدر .

وقوله فى جنات ونعيم لبيان أن حالهم كحال من يتمتع بالبستان، وكالناطور الذى يحرسه، وقوله: فاكهين، إشارة إلى أن قلوبهم لا يشغلها همّ ولا نصب، بل هم فى لذة وسرور، وفرح وحبور.

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال:

(ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أى وقد نجاهم ربهم من عذاب النار، فلم يمسسهم لظاها، ولم يحسوا بأذاها، فهم قد لابسوا النعم، وجانبوا النقم، وذلك هو الفوز العظيم، والنعيم المقيم.

ثم ذكر أنه يقال لهم حينئذ:

(كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) أى كلوا مما رزقكم ربكم من الطيبات واشربوا مما لذّ وطاب، هنيئا أى لا تخافون أذى ولا غائلة كما تشاهدون مثل ذلك فى طعام الدنيا وشرابها، كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال، وآثرتم من تعب الدنيا لراحة الآخرة. قيل للربيع بن خُثَيْم وقد صلى طوال الليل: أتعبت نفسك، فقال: راحتَها أطلب.

ونحو الآية قوله تعالى «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ».

وفى قوله (هنيئا) إشارة إلى خلوّ المآكل والمشارب مما ينغصهما، فإن الآكل قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام، أو يخاف النفاد فيحرص عليه، أو يتعب فى تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج، ولا يكون شىء من هذا فى الآخرة.

وفى قوله (بما كنتم تعملون) إيماء إلى أن هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به فى الدنيا فلا منّ عليهم فيه، بل كان المن عليهم فى الدنيا، بهدايتهم للإيمان، وتوفيقهم لصالح الأعمال كما قال «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ».

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال:

(متكئين على سرر مصفوفة) أى يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار

بعض ، جلسة المتكئ الذى لا كلفة عليه ، ولا تكلف لديه ، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس ولا يتكئ ، ومن يكون فى مهمّ لايتفرغ للاتكاء ، فحاله حال اطمئنان ورفع كلفة وخلوّ بال .

ونحو الآية قوله « عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الأزواج فقال :

(وزوّجناهم بحور عين) أى وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حسانا واسعات العيون .

وهذا وصف يتمدح به العربى إذا ذكر جمال المرأة .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨).

شرح المفردات

ألتناهم : أى أنقصناهم ، رهين : أى مرهون بعمله عند الله ، والعمل الصالح يفكّه ، والعمل الطالح يوبقه ، وأمددناهم : أى زدناهم ، مما يشتهون : أى من صنوف النعماء ، وضروب الآلاء ، يتنازعون : أى يتجاذبون تجاذب ملاعبة وسرور ،

والكأس : الإناء بما فيه من الشراب قاله الراغب ، وقد يسمى كل منهما على انفراد كأسا ، لا لغو فيها : أى فى شرابها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسقط الكلام ، ولا تأثيم : أى ولا يفحشون فى القول كما هو ديدن الندامى فى الدنيا، فإنهم كثيرو اللغو فعالون للآثام ، غلمان : أى مماليك مختصون بهم ، مكنون : أى مصون فى أصدافه لم تنله الأيدى فهو يكون أبيض صافى اللون ، والسموم النار والبر : الواسع الإحسان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يتمتع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرمًا منه وفضلا ــ أردف ذلك بذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام ، وهو أن يُلحق بهم ذريتهم المؤمنة فى المنازل والدرجات ، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك ، لتقرّبهم أعينهم إذا رأوهم فى منازلهم على أحسن الأحوال ، فيرفع الناقص فى عمله إلى الكامل فيه ، ولا ينقص من عمله هو ولا منزلته .

قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى المنزلة ، لتقرّبهم عينه ، وقرأ الآية ، ثم وصف حالهم إذ ذاك فى الطعام والشراب والفاكهة ، فأبان أنه ما من فاكهة أو طعام يطلبونه إلا وجدوه ؛ ثم أتبع هذا ببيان عظيم حبورهم وسرورهم ، فإنهم يتجاذبون الكئوس ، ويتندرون بأطيب الأحاديث التى لا لغو فيها ولا يأثم بها قائلها لو كان فى الدنيا ، وتخدمهم مماليك غاية فى الحسن والجمال ، ويتحدثون بما كان لهم من شؤون وأحوال فى الدنيا كما هو شأن ناعمى البال قريرى الأعين .

ثم ذكر أن من أحاديثهم أنهم كانوا فى دنياهم يخشون ربهم ويخافونه ، ومن ثمّ وقاهم عذاب النار .

الإيضاح

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) أى إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم فى الإيمان يلحقهم ربهم بآبائهم فى المنزلة فضلا منه وكرما وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم ، لتقرّ بهم أعينهم ، ويكمل بهم فرحهم وسرورهم ، لوجودهم بينهم .

روى ابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال له إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : رب قد عملتُ لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » .

(وما ألتناهم من عملهم من شىء) أى وما أنقصنا مثوبات الآباء وحططنا درجاتهم ، بل رفعنا منزلة الأبناء تفضلا منا وإحسانا .

وبعد أن أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم ، أخبر عن مقام العدل وهو ألا يؤاخذ أحد بذنب أحد فقال :

(كل امرئ بما كسب رهين) أى كل امرئ مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبا أو ابنا ، وقد جعل العمل كأنه دَيْن والمرء كأنه رهن به ، والرهن لا ينفك مالم يؤدّ الدين ، فإن كان العمل صالحا فقد أدى الدين ، لأن العمل الصالح يقبله الله ويصعد إليه ، وإن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص ، إذ لا يصعد إليه غير الطيب .

ونحو الآية قوله « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى إن كل نفس رهن بعملها عند الله لا يفك رهنها إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم .

وبعد أن ذكر وجوه النعيم فيما سلف ذكر أنه يزيدهم على ذلك حينا فحينا مما يشتهون من فنون النعماء فقال :

(وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم على ما سلف فواكه ولحوما من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى ، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا .

وذكر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى ، لأنهما طعام المترفين فى الدنيا .

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شرابهم وسرورهم لدى احتسائهم له فقال :

(يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم) أى يتجاذبون الكؤوس فى الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى فيما بينهم لشدة سرورهم كما قال الأخطل :

نازعتهُ طيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقد ... صاح الدجاجُ وحانتْ وقعةُ السارى

وليس فى الشراب فى الآخرة ما فيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ، ومن الفحش فى القول ، كما يتكلم به الشَّرْبُ فيها ، وقد أخبر سبحانه فى موضع آخر عن حسن منظرها ، وطيب مطعمها فقال « بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » وقال : « لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ » .

ثم ذكر ما لهم من خدم وحشم فى الجنة فقال :

(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) أى يطوف عليهم بالكؤوس مماليك لهم ، يتصرفون فيهم بالأمر والنهى والاستخدام كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون فى الأصداف فى الحسن والبهاء .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : « بلغنى أنه قيل يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

وروى « إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجىء ألف ببابه لبَّيْكَ لبَّيْكَ » .

ثم بين أنهم فى الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض فى أحوال الدنيا فقال :

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى أقبلوا يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، ثم يحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن والخوف والهم وما كانوا فيه من الكدر والنكد لطلب المعاش وتحصيل الأرزاق ، وما وصلوا إليه ، تلذذا بالنعمة واعترافا بها .

أخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا فيتحدثان ، فيتكئ ذا ويتكئ ذا فيتحدثان بما كانوا فى الدنيا فيقول أحدهما لصاحبه يا فلان أتدرى أىّ يوم غفر الله لنا ؟ اليوم الذى كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا » .

ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضا فقال :

(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين. فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم) أى قالوا إنا كنا فى دار الدنيا ونحن بين أهلها خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ، فتفضل علينا وأجارنا مما نخاف .

والمقصود إثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى ، فإن وجودهم بين أهليهم مظِنّة الأمن ، فإذا خافوا فى تلك الحال فلأن يخافوا فى غيرها بالأولى .

روى أن عائشة قالت : « لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها» .

ثم تمموا العلة فى استحقاقهم للكرامة فى تلك الدار بقولهم :

(إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) أى إنا كنا نعبده ونسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة ، فاستجاب دعاءنا وأعطانا سؤلنا ، لأنه هو المحسن الواسع الرحمة والفضل .

وكل من المؤمن والكافر لاينسى ما كان له فى الدنيا ، وتزداد لذة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة ، ومن الضيق إلى السعة ؛ وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف ، ومن النعيم إلى الجحيم .

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) .

شرح المفردات

فذكر : أى فاثبت على ماأنت عليه من التذكير ، والكاهن : من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ، والعرّاف : من يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك قاله الراغب ، ونتربص : أى ننتظر ، والمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه وصروفه قال أبو ذؤيب :

أمِنَ المنون وريبها تتوجع		والدهر ليس بمُعْتب من يجزع

وقال آخر :

تربَّصْ بها ريب المنون لعلها		تُطَلَّقُ يوما أو يموتُ حليلُها

الأحلام : العقول ، والطغيان : تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ، تقوّله : أى اختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لايستعمل غالبا إلا فى الكذب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لامحالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول على الحق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدّقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه — أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجة وسيفا فى هذه الدار ، ومنزلة ورفعة فى دار القرار ؛ ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى ، لا اتباعا للدليل والبرهان ، وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما لايخفى ، إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا وأبينهم قولا منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد من الجنون والكهانة ، إلى ما فى هذا من التناقض والاضطراب ، فإن الكهان كانوا من الكملة وكان قولهم متقنا ، فأين هذا من الجنون ، ثم ترقوا فى نسبته إلى الكذب فقالوا إنه شاعر وأعذب الشعر أكذبه ، ثم قالوا فلنصبر عليه ولنتربص به صروف الدهر وأحداثه ، فسيكون حاله حال زهير والنابغة وأضرابهم ممن انقرضوا وصاروا كأمس الدابر ، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله : « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » ثم زاد فى تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون ، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون ويقولون ما لادليل عليه لامن كتاب ولا مقتضى له من عقل ؛ ثم زادوا فى الإنكار ونسبوه إلى التقول والافتراء ، فإن صح مايقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترى إن كانوا صادقين ، لا بل هم قوم جاحدون لايؤمنون فليقولوا ماتسوّله لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم ، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل ، والغث من السمين فامض لشأنك ، ولا تأبه لمقالهم فالله معك ، ولن يترك شيئا من أعمالك .

الإيضاح

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى فذكر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم ، وعظهم بالآيات والذكر الحكيم ، ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل ، وقد انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك ، وهذا كما يقول القائل : ما أنا بمعسر بحمد الله وغناه ، والمراد بذلك الرد على القائلين بذلك وإبطاله ، فإن ما أوتيه من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وصدق النبوة لكاف حد الكفاية فى دحض هذا وأشباهه . وممن قال إنه كاهن شَيْبة بن ربيعة ، وممن قال إنه مجنون عُقبة بن أبى مُعَيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا فى الإنكار عليه فقال :

(أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل هم يقولون : هو شاعر نتربص به أحداث الدهر ونكباته من موت أو حادثة متلفة .

روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صدّ دعوته صلى الله عليه وسلم ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر وسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية .

وخلاصة هذا — إنا نبتعد من إيذائه ، ونتقى لسانه مخافة أن يغلبنا بقوة شعره وإنما سبيلنا معه أن نصبر عليه ونتربص موته كما مات الشعراء من قبله .

فأمره الله أن يهددهم ويتهكم بهم بقوله :

(قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أى انتظروا وتمهلوا فىّ ريب المنون ، فإنى متربص معكم منتظر قضاء الله فىّ وفيكم ، وستعلمون لمن يكون حسن العاقبة والظفر فى الدنيا والآخرة .

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض فى القول ،

فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون ، وفرق عظيم بين من زال عقله ، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين ، ومن يجعل قوله حجة فى معرفة أخبار الغيب ، و يعتقد أن الجن توحى إليه بما يقول :

وقصارى هذا : إنهم لا أحلام لهم ولا عقول .

ثم ذكر السبب الحق فى كل مايعملون فقال :

(أم هم قوم طاغون) أى بل الحق : إن الذى حملهم على أن يقولوا ما قالوا ، هو طغيانهم وعنادهم وضلالهم عن الحق .

(أم يقولون تقوّله) أى أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟.

(بل لايؤمنون) أى إن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ماقالوا .

ثم رد عليهم جميع مازعموا وتحداهم فى دحض ما قالوا فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى إن كان شاعرا فلديكم الشعراء الفصحاء ، أو كاهنا فلديكم الكهان الأذكياء ، و إن كان قد تقوله فلديكم الخطباء الذين يحبّرون الخطب و يجيدون القول فى كل فنون الكلام ، فهلمّ فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هى متوافرة لديه ، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب النظم والنثر وحفظ أيام العرب ووقائعها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

شرح المفردات

من غير شىء: أى من غير خالق ، خزائن ربك : أى خزائن رزقه، المسيطرون: أى القاهرون المسلطون عليها ، من قولهم: سيطر على كذا : إذا راقبه وأقام عليه ، سلّم : أى مرتقى إلى السماء ، بسلطان مبين: أى بحجة واضحة تصدق استماعه ، مغرم : أى التزام غرامة تطلبها منهم ، مثقلون : أى محملون ثقلا ، الغيب : أى علم الغيب ، كيدا : أى شرا ، المكيدون : أى الذين يحيق بهم الشر ويعود إليهم وباله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وردّ عليهم مازعموه من أنه كاهن أو شاعر أو مجنون ، وأمره أن يمضى لطيّته ويذكّر الناس ويبشرهم وينذرهم ولا يأبه لمقالتهم ، فالله ناصره عليهم ـ انتقل إلى الرد عليهم فى إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين أو لادعائهم لله شريكا كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وقالوا : مانعبد الأوثان والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وبعد أن أقام عليهم الحجة فى كل ذلك ، وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لايضيره شيئا ، فالله ناصره عليهم ، وسيظهر دينه، ويتمّ له الغلبة والفلج عليهم .

الإيضاح

(أم خلقوا من غير شىء) أى كيف ينكرون الخالق الموجد ؟، فهل هم وُجدوا من العدم ؟ وهل هم خلقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد ؟ والعقل يشهد بأن كل مايوجد من العدم لابد له من موجد .

(أم هم الخالقون) أى بل أهم أوجدوا أنفسهم ؟ والضرورة والعقل يكذبان ذلك ، إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدما فى الوجود على نفسه ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدّمون على أنفسهم فى الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا بيِّن البطلان .

(أم خلقوا السموات والأرض) أى لو فرض أنهم خلقوا أنفسهم ، فهل هم يجرءون و يقولون إنهم خلقوا هذه الأجرام العظيمة التى تتوقف عليها حياتهم ، وفيها أسباب معاشهم وهى السموات والأرض ؟ — أظن أنهم لايدّعون ذلك .

(بل لايوقنون) أى ليس واحد مما تقدم يمكن أن يدّعوه ، بل حقيقة أمرهم أنهم لايوقنون بما يقولون إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ فقالوا الله ، إذ لو أيقنوا بذلك ما أعرضوا عن عبادته .

(أم عندهم خزائن ربك) أى بل أهم يتصرفون فى الملك و بيدهم مفاتيح الخزائن؟ فيعطوا النبوة لمن يشاءون ، و يصطفوا لها من يختارون .

(أم هم المصيطرون) أى أم هم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر العالم و يبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم ، والمراد أنه ليس الأمر كذلك ، بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

روى البخارى عن الزهرى عن محمد بن جُبير بن مُطْعم عن أبيه قال : « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ » كاد قلبى يطير ، وكان جبير بن مطعم

قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، فكان سماعه هذه الآية من جملة ماحمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك .

(أم لهم سلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) أى أم لهم مرتقى إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب ، فهم لذلك مستمسكون بما هم عليه ، فإن كانوا يدّعون ذلك فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ، كما أتى محمد صلى الله عليه وسلم بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه .

وبعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بياتا ردّ على من قالوا : الملائكة بنات الله ، وسفه أحلامهم ؛ إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين فقال :

(أم له البنات ولكم البنون) أى بل ألربكم البنات ولكم البنون ؟ « تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » .

وفى هذا إيماء إلى أن من كان هذا رأيه لايعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت ، وسماع كلام رب العزة والجبروت .

(أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) أى بل أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ماتدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته — أجرا تأخذه من أموالهم فهم من ثقل ماحملتهم من المغرم لايقدرون على إجابتك إلى ماتدعوهم إليه ؟

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) أى أم عندهم علم فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ويخبرونهم بما أرادوا — ليس الأمر كذلك ، إذ لايعلم غيب السموات والأرض إلا الله .

قال قتادة : وهذا جواب لقولهم : نتربص به ريب المنون ، فيقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يموت قبلهم .

(أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) أى بل يريد هؤلاء المشركون

بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرورَ الناس وكيد الرسول، فإن كان هذا ما يريدون فكيدهم راجع إليهم ووباله على أنفسهم ، فثق بالله وامض لما أمرك به .

قال فى فتح البيان : والظاهر أنه من الإخبار بالغيب ، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة ، ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ماهنا من كلة (أم) وهى خمس عشرة ، فإن بدرا كانت فى الثانية من الهجرة وهى الخامسة عشرة من النبوة ، وأذلهم فى غير موطن ، ومكر سبحانه بهم ومكروا ، ومكر الله والله خير الماكرين اه .

(أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون) أى ألهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذاب الله ؟ تنزه ربنا عن الشريك وعما يعبدونه سواه .

وفى هذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم للأصنام والأنداد مع الله تعالى.

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩).

شرح المفردات

كسفا : أى قطعة ، مركوم : أى متراكم ملقى بعضه على بعض ، يصعقون : أى يُقتلون ، دون ذلك : أى قبله ، وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ،

بأعيننا : أى فى حفظنا وحراستنا ، وإدبار النجوم : أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مزاعمهم فى النبوة وبيّن فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة ، ثم أعقبه بالرد عليهم فى جحودهم للألوهية إما بإنكارها بتاتاً ، وإما بادّعاء الشريك لله ، أو باتخاذه الولد ، سبحانه وتعالى عما يصفون - أردف هذا ببيان أن هؤلاء قوم بلغوا حدا فى العناد أصبحوا به يكابرون فى المحسات فضلا عن المعقولات ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لا مرد له ، يوم لا تنفعهم حبائلهم وشراكهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليًّا ولا نصيرا ، وأن الله سيصيبهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرك عليهم وكالئك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ومن مجلسك ، وحين تغيب النجوم ويصبح الصباح وتغرّد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة : سُبُّوحٌ قُدُّوس ، ربُّ الملائكة والرُّوح .

الإيضاح

(وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) أى إن هؤلاء قوم ديدنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ماسألوا من الآيات ، فعاينوا كسفا من السماء ساقطا — لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ماتبصره الأعين ، وتسمعه الآذان .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم فقال :

(فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى فدعهم وشأنهم ولا تكترث بهم حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسيئات أعمالهم وهو يوم بدر ، قاله البقاعى وهو الظاهر فى الآية .

(يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون) أى وفى هـذا اليوم لاتنفعهم الحيل التى دبروها لمناصبته صلى الله عليه وسلم العداء ، ولا يجدون لهم نصيرا ولا معينا يدفع عنهم مايحيق بهم من العذاب .

(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) أى وإن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالـكفر والمعاصى عذابا بالقحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر لأنه كان فى السنة الثانية للهجرة والقحط وقع لهم قبلها .

(ولـكن أكثرهم لايعلمون) ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة ، وأنا سنبتليهم بالمصايب ، لعلهم يرجعون وينيبون إلينا .

ونحو الآية قوله : « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واصبر لحـكم ربك فإنك بأعيننا) أى واصبر على أذاهم ولا تبال بهم، وامض لأمر الله ونهيه وبلّغ ما أرسلت به ، فإنك بمرأى منا نراك ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى .

(وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى ونزّه ربك عما لايليق به لإنعامه عليك ، واعبده بالتلاوة والصلاة حين تقوم من مجلسك ، قال عطاء وسعيد وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه .

وعن أبى بَرْزَة الأسلمى قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخر عمره إذا قام

من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل يارسول الله : إنك لتقول قولا ما كنتَ تقوله فيما مضى ، قال كفارة لما يكون فى المجلس » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم وابن مردويه وابن أبى شيبه .

وروى « أن جبريل علّم النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

(ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) أى وسبحه فى صلاة الليل ، لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ، وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، وقيل المراد من التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، ومن إدبار النجوم ركعتا الفجر .

وقد روى ذلك عن عمر وعلىّ وأبى هريرة والحسن رضى الله عنهم أجمعين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » .

خلاصة ماحوته السورة الكريمة

من العظات والزواجر

(١) القسَم بالعالَم العلوى والسفلى على أن العذاب آتٍ لامحالة .

(٢) وصف عذاب النار وما يلاقيه المكذبون حينئذ من الذلة والمهانة .

(٣) وصف نعيم أهل الجنة وما يتمتعون به من اللذات فى مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزواجهم وخدمهم وحشمهم .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبات على تبليغ الرسالة والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم: هو شاعر ، هو كاهن ، هو مجنون ، هو مفتر .

(٥) إثبات الألوهية بالبراهين التى لاتقبل جدلاً .

(٦) النعى على المشركين فى قولهم : الملائكة بنات الله .

(٧) بيان أنهم بلغوا فى عنادهم حــــدا ينكرون معه المحسوسات التى لاشك فيها .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى كانوا يوعدون .

(٩) الإخبار بأن الظالمين فى كل أمة وكل جيل يعذبون فى الدنيا قبل عذابهم فى الآخرة .

(١٠) الإخبار بأن الله حارس نبيّه وكالئه ، فلا يصل إليه أذى من خلقه كما قال سبحانه « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

(١١) أمره صلى الله عليه وسلم بالذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل موطن ومجلس يقوم فيه .

سورة النجم

هى مكية إلا آية ٣٢ فمدنية ، نزلت بعد سورة الإخلاص ، وعدد آيها ثنتان وستون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة قبلها ختمت بقوله : وإدبار النجوم ، وبدئت هذه بقوله : والنجم إذا هوى .

(٢) إن السورة قبلها ذكر فيها تقوّل القرآن وافتراؤه ، وذكر هذا فى مفتتح هذه السورة .

(٣) إنه ذكر فى التى قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم ، وفى هذه ذكر ذرية اليهود فى قوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » .

(٤) إنه قال هناك فى المؤمنين : « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقال هنا فى الكفار « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى » .

وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى « أن أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف» .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) .

شرح المفردات

المراد بالنجم : جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ، يقال هوى النجم هويّا (بالفتح) أى سقط وغرب ، وهويا : (بالضم) إذا علا وصعد ، ماضلّ : أى ماحاد عن الطريق المستقيم ، صاحبكم : أى مصاحبكم والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم بعنوان المصاحبة لهم إيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خُبرا ببراءته مما نسب إليه ، وباتصافه بالهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له ومشاهدتهم لشئونه العظيمة تقتضى ذلك ، ففى هذا تأكيد لإقامة الحجة عليهم ، وما غوى : أى وما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا لقريش ، وما ينطق عن الهوى : أى مايتكلم بالباطل ، والمراد بشديد القوى جبريل عليه السلام ، ذو مرة : أى ذو حصافة عقل وقوة عارضة ، قال قُطْرب : العرب تقول لكل من هو جزل الرأى حصيف العقل : هو ذو مرة . من قولهم أمررت الحبل : أى أحكمت فتله ، فاستوى : أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى مبادى النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ثم دنا : أى ثم قرب ، فتدلى : أى فنزل

من قولهم تدلت الثمرة ، ومنه الدوالى وهى الثمر المعلق كعناقيد العنب ، والقاب مقدار ما بين المقبض والسِّيَة ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح وبالذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع ، أو أدنى : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ، ما رأى أى ما رآه ببصره ، أفتمارونه على ما يرى: أى أفتجادلونه على مايراه معاينة ، نزلة أخرى: أى مرة أخرى. سدرة المنتهى : هى شجرة نبق قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، جنة المأوى : أى الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، يغشى: يغطى ، ما زاغ البصر: أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكّن منها وما مال يمينا ولا شمالا ، وما طغى : أى ما جاوز ما أمر به ، آيات ربه الكبرى : أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

المعنى الجملى

أقسم ربنا بخلق من مخلوقاته العظيمة التى لا يعلم حقيقتها إلا هو ، وهى نجوم السماء التى تهدى السارى فى الفلوات ، وترشده إلى البعيد من المسافات — إن محمدا صاحبكم نبىّ حقا وما ضلّ عن طريق الرشاد ولا اتبع الباطل ، ولا يتكلم إلا بوحى يوحيه الله إليه ويعلمه إياه جبريل شديد القوى ، ولقد رآه مرتين على صورته التى خلقه الله عليها بأجنحته وأوصافه الملكية : مرة بغار حراء فى بدء النبوة ، وأخرى ليلة المعراج حين عرج به إلى السماء ورأى من عجائب صنع الله ما رأى مما استطاع أن يخبركم به ومما لم يستطع ذلك ، فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به وتقولون طورا : إنه مجنون ، وطورا آخر إنه كاهن ، وطورا ثالثا إنه شاعر ، وما كل هذا بالذى ينطبق على أوصافه وهو صاحبكم وأنتم أعلم بحاله ، فحق عليكم أن تسمعوا قوله ، وأن تطيعوا أمره فتفوزوا برضوان من ربه .

الإيضاح

(والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى) أى قسما بمخلوقاتى العظيمة وهى النجوم التى تسير فى مداراتها ولا تعدو أفلاكها ، والتى تهتدون بها فى الفيافى والقفار ، فى حلكم وترحالكم ، فى سفركم وحضركم ، وفى البحار ، ولها لديكم منزلة عظمى فى حياتكم المعيشية - إن محمدا نبى حقا وما حاد عن سبيل الحق ولا سلك سبيل الباطل .

وقد خاطب سبحانه بهذا القَسَم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عليهم فى تعيين المواسم والفصول ، ليستعدوا للنُّجْعة ، ويرتادوا الكلأ بعد سقوط المطر ، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه ، ويتيامنوا ببعضها ويتشاءموا ببعض آخر .

إلى أن القَسَم بها ينبهنا إلى أن هناك عوالم وأجراما علوية يجب علينا أن نتعرف أمرها ، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها وبديع صنعه .

ولقد أثبت العلم حديثا ما يدعو إلى العجب من أحوال هذه الأجرام ، وسرعة سيرها ، وكبير حجمها ، فقد علم أن سير نور الكوكب ٣٠٠ ألف كيلو فى الثانية ، ومثله سير الأمواج اللاسلكية ، وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله فى نحو مائة مليون سنة ، فنسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة .

والنظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من عالم المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ نحو ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر . ويقدرون عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وعمر المياه عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان بنحو ٣٠٠ ألف سنة .

وإن شمسنا التى تزيد على أرضنا ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة هى كوكب له توابع وسيارات ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكوّن مجرتنا ، وهذه المجرة لها نظائر ، فسبحان الخلاق العليم الذى لا يعلم جنوده إلا هو .

والخلاصة — إن الرسول صلى الله عليه وسلم راشد مرشد تابع للحق ليس بضالّ ولا هو يسلك الطريق بغير علم ، ولا هو غاوٍ يعدل عن الحق قصدا إلى غيره ، وبهذا نزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، فهو فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد .

ثم بيّن السبب فى عدم ضلاله وغوايته فقال :

(وما ينطق عن الهوى) أى كيف يضل ويغوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من كان كذلك ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلاَ تَتَّبِـعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(إن هو إلا وحى يوحى) أى إنما يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملا موفورا بلا زيادة ولا نقصان .

روى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا أقول إلا حقا » قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله ، قال : « إنى لا أقول إلا حقا » .

ويرى بعض المفسرين أن قوله : ما ضل صاحبكم ـ ردٌّ لقولهم : إنه مجنون ،

وقوله: وما غوى ــ ردّ لقولهم إنه شاعر: أى ليس بينه وبين الغواية تعلق وارتباط ، وقوله : والشعراء يتبعهم الغاوون ، وقوله : وما ينطق عن الهوى ــ ردّ لقولهم : هو كاهن وقوله : إن هو إلا وحى يوحى تأكيد لما تقدم ، أى فلا هو بقول كاهن ولا هو بقول شاعر .

(علّمه شديد القوى) أى علم صاحبكم جبريلُ عليه السلام وهو شديد القوى العلمية والعملية ، فيعلم ويعمل ، ولا شك أن مدح المعلّم مدح للمتعلم .

وفى هذا رد عليهم فى قولهم : إن هو إلا أساطير الأولين ، سمعها وقت سفره إلى الشام .

والخلاصة — إنه لم يعلّمه أحد من الناس، بل علمه شديد القوى، والإنسان خلق ضعيفا لم يؤت من العلم إلا قليلا ــ إلى أنه موثوق بقوله ، لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل ، وكذلك هو موثوق بحفظه وأمانته ، فلا ينسى ولا يحرّف .

(ذو مِرّة) أى ذو حصافة فى العقل ، فالوصف الأول إشارة إلى قوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر وظهور الآثار البديعة منه .

والخلاصة — إنه يجمع بين القوى النظرية والقوى الجسمية كما روى أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحيه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا جاثمين .

وإنا لنؤمن بهذا على أنه من عالم الغيب ونكتفى بما جاء فى كتابه تعالى ولا نزيد عليه .

وإن علماء الأرواح فى أوربا الآن أصبحوا يؤمنون بقوى عالم الروح وبما لها من خوارق العادات بالنظر إلى عالمنا . قال أوليفر لودج : إنى أصبحت موقنا بأنا محوطون بعالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا ، وهم يساعدوننا ويحافظون علينا ، ثم قال : وقفت على هــــذا بطريق علمى (يريد تحضير الأرواح) ثم قال : فإذا ما قال القدّيسون إنهم رأوا الملائكة أو أنهم رأوا الله ، فكل ذلك حق لا مرية فيه اه .

هذا ولا شك من عجائب القرآن ، فإن ما جاء فيه مما يتعلق بعالَم الأرواح أصبح علوما تدرس وتذاع بين الناس باعتبارها علوما روحية وكشفا حديثا ، صدق ربنا « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

فالقوى الجسمية والعقلية للعالم الروحى ظهرت بطريق استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى ، إذ فيه انخلاع للنفس عن البدن انخلاعًا جزئيا أو كليا وهى مربوطة به ولها اتصال بالعوالم الروحية .

(فاستوى وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى فاستقام جبريل على صورته التى خلقه الله عليها حين أحب رسوله صلى الله عليه وسلم أن يراه كذلك ، فظهر له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس ، فملأه ثم أخذ يدنو من رسوله الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول حتى كان منه مقدار قوسين أو أقرب على تقديركم وعلى مقدار فهمكم ، فأوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحيه إليه من شئون الدين .

ولا غرو فإن ظهور الأرواح فى صورة مرئيـة أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب وأصبح فى طوقهم أن يظهروا الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم حين التنويم المغناطيسى ، وإذا صح ذلك للعامة فليكن ذلك للقدّيسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم ، ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلِّى والمتجلَّى عليه وظهوره فى صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته ، وقوله : فأوحى إلى عبده ما أوحى ، يرجع إلى قوته العلمية .

ولما كان الإنسان كثيرا ما يظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له ، حتى قال علماء الأرواح : إنهم لما خاطبوا الأرواح قالت لهم : إنكم كثيرا ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس — أعقب سبحانه هذا بما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه أن هذا تخيل ولا أنه وَهْم فقال :

(ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ما كذب فؤاده ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام : أى إن فؤاده صلى الله عليه وسلم ماقال لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

والخلاصة — إنه لما قال : إن هو إلا وحى يوحى أكد هذا المعنى وفصله بقوله : علمه شديد القوى ، ليبين أنه ليس من الشعر ولا من الكهانة فى شىء ، ولما قال : فاستوى وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة دِحْيَة الكلبى لايعمى وصفه ، إذ قد عرفه بشكله الحقيقى من قبل ، فلا يشتبه عليه ، وقوله : ثم دنا فتدلى تتميم لحديث نزوله عليه السلام وإتيانه بالمنزّل ، وقوله : ما كذب الفواد ما رأى ، بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك فى أنه جبريل ولو تصور بغير تلك الصورة .

(أفتمارونه على ما يرى ؟) أى أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

(ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) أى ولقد رأى النبىُّ صلى الله عليه وسلم جبريلَ فى صورته التى خلقه الله عليها عند شجرة النبق التى ينتهى إليها علم كل عالِم وما وراءها لايعلمه إلا الله قاله ابن عباس .

وقد يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل أى سدرة الله الذى إليه المنتهى كما قال سبحانه « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » وعند هذه السدرة الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة قاله الحسن البصرى .

وعلينا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها الله ، ولا نعين مكانها ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم ، إلا إذا ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ما يبين ذلك ويثبت لدينا بالتواتر ، لأن ذلك من علم الغيب الذى لم يؤذن لنا بعلمه .

روى أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم أنها فى السماء السابعة ، نبتها كقِلال هَجَر ، وأوراقها مثل آذان الفيلة ، يسير الراكب فى ظلها سبعين خريفا لا يقطعها .

والمشاهد فى الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء ، ولكن لا عجب فالله يخلقه فى أى مكان شاء ، كما أخبر عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم .

وقُصارى ما سلف — إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته الحقيقية مرتين : مرة وهو فى غار حراء فى بدء النبوة ، والثانية فى ليلة المعراج ولم يكن ذلك فى الأرض بل كان عند شجرة نبق عن يمين العرش وهى فى منتهى الجنة : أى آخرها ، وعلم الملائكة ينتهى إليها .

وقد تقدم أن الصحيح أن الصعود إلى الملإ الأعلى كان روحيا لا جسمانيا كما روى عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم .

(إذ يغشى السدرة ما يغشى) أى رآه حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الإشراق والحسن ، ومن الملائكة ؛ وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم فعلينا أن نكتفى بهذا الإبهام ولا نزيده إيضاحاً بلا دليل قاطع ولا حجة بينة ، ولو علم الله الخير لنا فى البيان لفعل .

(ما زاغ البصر وما طغى) أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكّن منها ، وما جاوزها إلى رؤية ما لم يؤمر برؤيته .

والخلاصة — إنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى .

(لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى ولقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه وعجائبه الملكوتية .

روى البخارى وابن جرير وابن المنذر فى جماعة آخرين عن ابن مسعود أنه

قال في الآية : رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق ، وعن ابن زيد أنه رأى جبريل بالصورة التي هو بها .

وعلينا ألا نحصر ما رآه في شيء بعينه بعد أن أبهمه القرآن ، إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء .

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)

شرح المفردات

اللات والعزى ومناة : أصنام كانت تعبدها العرب في جاهليتها ، فاللات كانت لثقيف . وأصل ذلك أن رجلا كان يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ثم صنعوا له صورة وعبدوها ، والعزى : شجرة بغطفان كانوا يعبدونها ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإسلام خالد بن الوليد ليقطعها ، فجعل يضربها بفأسه ويقول :

يا عُزَّ كفرانكِ لاسبحانكِ إني رأيت الله قد أهانكِ

ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وكانت دماء النسائك تمنى عندها : أي تراق ، والأخرى : أي المتأخرة الوضيعة القدر كما جاء في قوله : « وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ

لِأُولَاهُمْ » أى وقالت وضعاؤهم لأشرافهم ورؤسائهم ، وقد جاء لفظ (الأخرى) بهذا المعنى بين المصريين فيقول : هو الآخر وهى الأخرى ، يريدون الضعة وتأخر القدر والشرف ، ضيزى : من ضزته حقه (بالضم والكسر) أى نقصته ، والمراد أنها قسمة جائرة غير عادلة قال امرؤ القيس :

ضازت بنو أسد بحكمهمُ إذ يجعلون الرأس كالذنب

المعنى الجملى

بعد أن بين ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم من العجائب ليلة المعراج — قال للمشركين ماذا رأيتم فى هذه الأصنام ؟ وكيف تحصرون أنفسكم فى العالم المادى وأصنامه ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لاترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء ، ولاسيما أن هذه الأصنام لاتشفع لهم عند ربهم ولا تجديهم نفعا .

الإيضاح

(أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟) أى أفبعد أن سمعتم ما سمعتم من آثار كمال الله عز وجل وعظمته فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته ، وأحكام قدرته ونفاذ أمره ، وأن الملائكة على رفعة مقامهم وعلوّ قدرهم ينتهون إلى السدرة ويقفون عندها — تجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما علمتم من عظمته .

وفى هذا تقريع شديد ، وتوبيخ عظيم ، وتأنيب لا إلى غاية ، وإنّ عاقلا لاينبغى أن يخطر بباله مثل هذا ، ويمتهن رأيه إلى هذا الحد .

روى أن أبا سفيان قال يوم أحد : لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

وبعد أن أنَّبهم على سخف عقولهم، وسفاهة أحلامهم، بعبادتهم الأصنام التى كانوا يزعمون أنها هياكل للملائكة، والملائكة بنات الله - وبخهم على نسبة البنات إليه سبحانه وهم لا يرضونها لأنفسهم فقال:

(ألكم الذكر وله الأنثى؟) أى أتجعلون له ولدا وتجعلون هذا الولد أنثى؟ وتختارون لأنفسكم الذكران، على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فكيف تنسبون إليه الناقص، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل.

(تلك إذًا قسمة ضيزى) أى تلك قسمة جائرة غير مستوية، ناقصة غير تامة لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها.

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء فى عبادة الأصنام وتسميتها آلهة فقال:

(إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أى إن هذه الأصنام التى تسمونها آلهة - هى أسماء فحسب وليس لها مسميات هى آلهة البتة، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها وتقديم القرابين إليها، وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون به ما تقولون، وإنما قلَّد فيها الآخر الأول، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء.

ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير، كما تقول: ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر.

ونحو الآية قوله تعالى «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً» الآية.

ثم أكد ماسلف بقوله:

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظوط نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين.

والخلاصة — إنكم تعبدون هذه الأصنام توهما منكم أن ماعليه آباؤكم حق ، وإشباعا لشهوات أنفسكم .

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ماينبههم إلى سوء رأيهم وعظيم غفلتهم فقال :

(ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أى هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم وينقادون إلى آرائهم ، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير ، والحجة الواضحة ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك مزدجر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

وبعد أن بين أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل ، بل لايستند إلا إلى التشهى والهوى واتباع الظن — ذكر أن هذا لا يجديهم نفعا ، فهى لاتشفع لهم عند الله ، ولا يظفرون منها بجدوى فقال :

(أم للإنسان ماتمنى ؟ فلله الآخرة والأولى) أى ماتتمنونه من شفاعة الآلهة لكم يوم القيامة لن يكون ، ولن تجديكم فتيلا ولا قطميرا ، فإن كل مافى الدنيا والآخرة فهو ملك له تعالى ولا دخل لهذه الأصنام فى شىء منه .

وهذا تيئيس لهم من أن ينالوا خيرا من عبادتها والتقرب إليها ولا تكون وسيلة لهم عند ربهم .

ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر فقال :

(وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) أى كثير من الملائكة لاتفيد شفاعتهم شيئا ولا تنفع إلا إذا أذن لهم ربهم بها لمن يشاء ممن أخلصوا له ، وأخبتوا له فى القول والفعل فرضى عنهم ، وإذا كان هذا حال الملائكة وهم عالم روحى لهم القرب عند ربهم والزلفى لديه ، فمابالكم بأصنام أرضية ميتة لاروح فيها ولاحياة ، فهى بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس .

وخلاصة ذلك — إنه لامطمع لكم فى شفاعة هذه الأصنام ، ولا تجديكم نفعا فى هذا اليوم .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن عاب عليهم عبادتهم للأصنام والأوثان ، وادعاءهم أن لله ولدا من الملائكة ، ورد عليهم بأن هذه الأصنام التى جعلوها آلهة لاتملك لأنفسها نفعا ولاضرا فما هى إلا أسماء ليس لها مسميات هى آلهة كما تدّعون ، فلا هى تشفع لهم ولا تجديهم فتيلا ولاقطميرا ؛ فإن الملائكة الكرام لايشفعون عند ربهم إلا إذا أذن لهم ورضى عمن يشفعون له ، فأجدر بمثل هؤلاء ألا يستطيعوا شفاعة عنده .

وهنا عاب عليهم هَنة أخرى ، وهى تسميتهم الملائكة بنات الله ، وأبان أن هذه مقالة شنعاء لاتصدر إلا عمن لايؤمن بالآخرة والحساب والعقاب ، فمن أين أتاهم أن لله أولادا من ملائكته ؟ والولد إنما يطلب للمساعدة وقت الحاجة ، ولحسن الأحدوثة ، ولحفظ الصيت ، والله غنى عن كل ذلك ، ولو صح مايقولون ، فلم اختاروا له البنات دون البنين ؟ أفلا يساوونه بأنفسهم ويجعلون له ولدا من الذكور لا من الإناث ؟ فما هذا منهم إلا أباطيل لاتغنى عن الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن

تعرض عن هؤلاء الذين لاهمَّ لهم إلا جمع حطام الدنيا ، والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، وما تخفى صدورهم ، وسيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويجازيهم على مايقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

الإيضاح

(إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) أى إن هؤلاء الذين لايؤمنون بالبعث وما بعده من أحوال الدار الآخرة على الوجه الذى بينته الرسل ، يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء وهى قولهم : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وإنما جعلها مقالة من لايؤمن، للإشارة إلى أنها بلغت من الفظاعة حدا لايمكن معه أن تصدر من موقن بالجزاء والحساب ، فقد اشتملت على جريمتين أولاهما نسبة الولد إلى الله ، ثانيتهما أن الولد أنثى تفضيلا لأنفسهم على بارئهم وموجدهم من العدم .

(وما لهم به من علم) أى وليس لهم بذلك برهان ولا أتى لهم به وحى حتى يقولوا ما قالوا .

ثم أكد نفى علمهم الحق بذلك فقال :

(إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئا) أى إن معرفة الشىء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين لاعن ظن وتوهم ، وأنتم لاتتبعون فيما تقولون فى هذه التسمية إلا الظن والتوهم ، وليس هذا من سبيل العلم فى شىء ، وقد جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » .

والخلاصة — إن مثل هـذا الاعتقاد يجب أن يكون عن دليل عقلى والعقل لا يركن إليه فى مثل هذا ، أو عن وحى ولم يصل إليهم منه شىء يخبرهم بما يقولون .

ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم فقال :

(فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ولم يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة وقصص الأولين المذكّرة بأمور الآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، واقتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجَدّوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحرث والوليد بن المغيرة وأضرابهما .

والخلاصة — لاتبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى أمور الدنيا ، وجعلها منتهى همته ، وأقصى أمنيته ، وقصارى سعيه ، فلا سبيل إلى إيمان مثله ، فلا تبخع نفسك على مثله أسفا وحزنا كما قال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لاَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » .

ثم أكد مامضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله :

(ذلك مبلغهم من العلم) أى إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا فى التجارات، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُعْنَوْن بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دَبْرَ أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لايعرفون منها قبيلا من دَبيرٍ .

روى أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا دار من لادار له ، ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له » وفى الدعاء المأثور « اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

ثم ذكر السبب فى الأمر بالإعراض عنهم فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمسائه ، مفكرا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على ألسنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى ينجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ؛ فاحتذى حذوها ، وسار على إثرها — وبمن حاد عن طريق النجاة وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شىء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه لمجازٍ كلاًّ بما كسب واكتسب ، وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، على حسب ما أحاط به واسع علمه ، وعلى مقدار فضله على من أخبت إليه كما قال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » ونكاله بمن دسّى نفسه واجترح السيئات ، مصداقا لقوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

والخلاصة — إن هؤلاء قوم لاتجدى فيهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) .

شرح المفردات

بما عملوا : أى بالعقاب على عملهم، بالحسنى : أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة، كبائر الإثم : ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر ، والفواحش : واحدها فاحشة وهى ماعظم قبحها من الكبائر ، واللمم : ماصغر من الذنوب كالنظرة والقبلة ، وهو فى اللغة اسم لما قلّ قدره ومنه لَمَّة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشىء دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أى قاربت منه ، وعليه فالمراد به الهمّ بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيِّب : هو ماخطر على القلب ، والأجنة : واحدها جنين ، وهو الولد مادام فى البطن .

المعنى الجملى

بعد أن أمره سبحانه بالإعراض عن المشركين مع شدة ميله إلى إيمانهم ، وتطلعه إلى هدايتهم ، وتعلقه بصلاحهم و إرشادهم وهم قومه وعشيرته ، وأبان له أن هؤلاء قوم انصرفوا عن النظر إلى الحق ، ووجهوا همّهم إلى زخرف الدنيا ، وأن منتهى علمهم التصرف فى شئونها ، فهى قبلتهم التى إليها يحجون ، ومطمح أنظارهم الذى إليه يرنون ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وأنهم قوم ضالون لايصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم .

ذكر هنا أنه تعالى لايهملهم ، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض ، فلا يترك عباده هملا بل يجازيهم بعدله ، فيثيب المحسن بالجنة ، ويعاقب المسىء على سوء صنيعه بما هو أهله ، ثم أردف ذلك بذكر أوصاف المحسنين وأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، ولا يقع منهم إلا اللمم من صغائر الذنوب الفَيْنَة بعد الفَيْنَة ، ويتوبون منه ولا يصرون عليه ، ثم حذر عباده بأنه لاتخفى عليه خافية من أمورهم من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن

يموتوا ، فيعلم المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذاً فى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات .

الإيضاح

(ولله مافى السموات وما فى الأرض) أى إن ما فى السموات وما فى الأرض تحت قبضته وسلطانه ، وله التصرف فيه خلقا وملكا وتدبيرا ، فهو العليم به لاتخفى عليه خافية من أمره ، فلا تظنوا أنه يهمل أمركم ، كلا ، فإنه مجازٍ كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وهذا ماعناه بقوله سبحانه :

(ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى فهو يجازى على حسب علمه المحيط بكل شىء — المحسنَ بالإحسان ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويمتعه بنعيم لايخطر على قلب بشر ، والمسىء بصنيع ما أساء ، وبما دسّى به نفسه من ضروب الشرك والمعاصى ، وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام ، وقد أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

ثم ذكر أوصاف المحسنين فقال :

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) أى إن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى كالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير حق والزنا ، ولا تقع منهم إلا صغائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على مافرط منهم .

ونحو الآية قوله : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً » .

والمشهور أن الكبائر سبع وروى ذلك عن علىّ كرم الله وجهه واستدلوا له بما روى فى الصحيحين « اجتنبوا السبع الموبقات : الإشراك بالله تعالى والسحر وقتل

النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلا قال له : الكبائر سبع ، فقال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار .

وقيل الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حدّ فى الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم ، أو ترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولو كان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك إنسانا ليقتله ظالم ، أو دل العدو على عورات البلاد فقد فعل أمرا عظيما ، فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قليلا مع أنه من الكبائر .

ثم ذكر مايدفع اليأس عن صاحب الكبيرة فى غفران ذنبه فقال :

(إن ربك واسع المغفرة) فيغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفر مايشاء من الذنوب بعد التوبة الصادقة ، والندم على مافرط من مرتكبها إذا أخبت إلى ربه ، وتجافى عن ذنبه .

ونحوه قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

ثم أكد ماقبله وقرره بقوله :

(هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى هو بصير بأحوالكم ، عليم بأقوالكم وأفعالكم حين ابتدأ خلقكم من التراب ، وحين صوركم فى الأرحام على أطوار مختلفة وصور شتى .

(فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) أى فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على

أنفسكم بالطهارة من المعاصي ، أو بزكاء العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصي ومن ولغ فيها ودنَّس نفسه باجتراحها .

والنهي عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بها الرياء أو الإعجاب بالعمل ، وإلا فلا بأس بها ولا تكون منهيا عنها ، ومن ثم قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » .

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت (بَرَّة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزكّوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البرّ منكم ، سموها زينب » .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا

أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢)
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) .

شرح المفردات

تولى : أى أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه ، وأكدى : أى قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أى بلغ إلى كدية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل ، ينبأ : أى يخبر ، وصحف موسى هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع ، ووفى: أى أتم ما أمر به ، أن لا تزر وازرة وزر أخرى : أى لا تحمل نفس حمل نفس أخرى يُرى : أى يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفا للمحسن وتوبيخا للمسىء ، يجزاه: أى يجزى سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله ، المنتهى : أى المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، تمنى : أى تدفع فى الرحم من قولهم : أمنى الرجل ومنى : أى صب المنىّ ، والنشأة الأخرى هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث ، أغنى وأقنى : أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، والشعرى : هى الشعرى العبور وهى ذلك النجم الوضاء الذى يقال له مِرْزم الجوزاء وقد عبدته طائفة من العرب ، وعاد الأولى : هم قوم هود وهم ولد عاد بن أرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى ، والمؤتفكة هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك ، لأنها ائتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم ، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، أهوى : أى أسقطها فى الأرض ، غشاها : أى غطاها .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه علمه وقدرته ، وأن الجزاء واقع على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذى يجتنب كبائر الإثم ، وهذا لا يعرف إلا بالوحى من الله تعالى . ذكر هنا أن من العجب العاجب بعد هذا أن يسمع سامع ويرجو عاقل أن غيره

يقوم مقامه فى تحمل وزره ويعطيه جُعلا لذلك ، لكنه ما أعطاه إلا قليلا ووقف عن العطاء ، ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا لا يكون إلا بوحى ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؟ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم كشريعة موسى وإبراهيم على غير هذا، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، فمن أين وصل له أن ذلك مجزٍ له .

قال مجاهد وابن زيد : إن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فلان قلبه للإسلام فطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة لكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عماهمّ به من الإسلام ، وضل ضلالا بعيدا ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشحّ .

وقد ذكر سبحانه ماتضمنته صحف إبراهيم وموسى :

(١) ألا يؤاخذ امرؤ بذنب غيره .

(٢) ألا يثاب امرؤ إلا بعمله .

(٣) إن العامل يرى عمله فى ميزانه ، خيرا كان أو شرا .

(٤) إنه يجازى عليه الجزاء الأوفى فتضاعف له حسناته إلى سبعمائة ضعف ، ويجازى بمثل سيئاته .

(٥) إن الخلائق كلهم راجعون يوم المعاد إلى ربهم ، ومجازون بأعمالهم .

(٦) إنه تعالى خلق الضحك والبكاء والفرح والحزن .

(٧) إنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من نطفة تصب فى الأرحام .

(٨) إنه تعالى خالق الموت والحياة .

(٩) إنه هو الذى أعطى الغنى والفقر ، وكلاهما بيده وتحت قبضته .

(١٠) إنه هو رب الشعرى ، وكانت خزاعة تعبدها .

(١١) إنه أهلك عادا الأولى ، وقد كانوا أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) إنه أهلك ثمود فما أبقاهم ، بل أخذهم بذنوبهم .

(١٣) إنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود وقد كانوا أظلم من الفريقين .

(١٤) إنه أهلك المؤتفكة وهى قرى قوم لوط وقد انقلبت بأهلها ، وغطاها بحجارة من سجيل .

الإيضاح

(أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) أى أعلمت شأن هذا الكافر ؟ وهل بلغك شأنه العجيب ، فقد أشرف على الإيمان واتباع هدى الرسول ، فوسوس إليه شيطان من شياطين الإنس بألا يقبل نصح الناصح ويرجع إلى دين آبائه ويتحمل ماعليه من وزر إذا هو أعطاه قليلا من المال، فقبل ذلك منه ، لكنه ما أعطاه إلا قليلا حتى امتنع من إعطائه شيئا بعد ذلك ، أفعنده علم بأمور الغيب ، فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه مايخاف من أوزاره يوم القيامة ؟.

وقصارى ذلك — أخبرنى بأمر هذا الكافر وحاله العجيبة ، إذ قبل أن سواه يحمل أوزاره إذا أدّى أجرا معلوما ، أأنزل عليه وحى فرأى أن ماصنعه حق ؟

ثم أكد هذا الإنكار فذكر أن الشرائع التى يعرفونها على غير هذا فقال :

(أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفّى) أى ألم يخبر بما نصت عليه التوراة وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفّى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمر به ، وأدى رسالته على الوجه المرضى ، يدل على ذلك قوله : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .

قال ابن عباس : وفّى بسهام الإسلام كلها وهى ثلاثون سهما لم يوفها أحد غيره ، منها عشرة فى براءة « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآيات ، وعشرة فى الأحزاب « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » الآيات ، وستة فى « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... » الآيات ، وأربعة فى سأل سائل « وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » الآيات .

وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله مالم يحتمل غيره ، وفى قصة الذبح مافيه الغناء فى ذلك .

وإنما ذكر ماجاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب، لأن المشركين كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون مافى التوراة ، وصحفها قريبة العهد منهم .

ثم فصل ماجاء فى هاتين الشريعتين فقال :

(١) (أن لاتزر وازرة وزر أخرى) أى لاتحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، فكل نفس اكتسبت إثمًا بكفر أو معصية فعليها وزرها لايحمله عنها أحد كما قال : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

(٢) (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) أى كما لا يحمل عليه وزر غيره لايحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط مالك والشافعى ومن تبعهما أن القراءة لايصح إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، وهكذا جميع العبادات البدنية كالصلاة والحج والتلاوة ، ومن ثم لم يندب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حثهم عليها ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، أما الصدقة فإنها تقبل ؛ وما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له،

وصدقة جارية من بعده ، وعلم ينتفع به » فهى فى الحقيقة من سعيه وكدّه وعمله ، كما جاء فى الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولد الرجل من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه على أعمال البر هى من آثار عمله ، وقد قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » الآية ، والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدوا به واتبعوه — هو من سعيه ، فقد ثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه من غير أن ينقص أجورهم شيئا » .

ومذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء أن ثواب القراءة يصل إلى الموتى إن لم تكن القراءة بأجر ، أما إذا كانت به كما يفعله الناس اليوم من إعطاء الأجر للحفاظ للقراءة على المقابر وغيرها — فلا يصل إلى الميت ثوابها ، إذ لاثواب لها حتى يصل إليهم ، لحرمة أخذ الأجر على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه .

(٣) (وأن سعيه سوف يرى) أى إن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ المسيئين .

ونحو هذا قوله : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(٤) (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره ، فيضاعف الله له الحسنة ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها أو يعفو عنها كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(٥) (وأن إلى ربك المنتهى) أى وأن مرجع الأمور يوم الميعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار .

وفى هذا تهديد بليغ للمسىء ، وحث شديد للمحسن ، وتسلية لقلبه صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : لاتحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

ونحو الآية قوله : « فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » إلى أن قال فى آخر السورة « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن .

(٦) (وأنه هو أضحك وأبكى) أى وأنه خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما، والمراد أنه خلق مايسرّ وما يحزن من الأعمال الصالحة ، والأعمال الطالحة .

(٧) (وأنه هو أمات وأحيا) أى وأنه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله : « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » فهو يميت من يشاء موته ، ويحيي من يشاء حياته ، ينفخ الروح فى النطفة الميتة فيجعلها حية .

(٨) (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى) أى وأنه خلق الذكر والأنثى من الإنسان وغيره من الحيوان من المنى الذى يدفق فى الأرحام .

(٩) (وأن عليه النشأة الأخرى) أى وأن عليه الإحياء بعد الإماتة، ليجازى كل من المحسن والمسىء على ما عمل .

(١٠) (وأنه هو أغنى وأقنى) أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، و يفقر من يشاء على حسب مايرى من استعداد كل منهما ومقدرته على كسب المال بحسب السنن المعروفة فى هذه الحياة .

وفى هذا تنبيه إلى كمال القدرة ، فإن النطفة جسم متناسب الأجزاء فى الظاهر ، و يخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة ، وطباعا متباينة من ذكر وأنثى ، ومن ثم لم يدّع أحد خلق ذلك ، كما لم يدّع خلق السموات والأرض كما قال : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

ونحو الآية قوله : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

(١١) (وأنه هو رب الشعرى) أى وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذى يطلع خلف الجوزاء فى شدة الحر .

وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية ، وفيها ماهو أكبر منها جرما وأكثر ضوءا ، لأنها عبدت من دون الله فى الجاهلية ، فقد عبدتها حِمْير وخُزاعة ، وأول من سن عبادتها أبو كبشة وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة تشبيها له به ، لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، وكان من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، ومن ذلك قول أبى سفيان عند دخوله على هرَقْل : لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبى كبشة .

ومن العرب من كانوا يعظمونها ، ويعتقدون أن لها تأثيرا فى العالم ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها .

وهى شعريان إحداهما شامية ، وثانيتهما يمانية وهى المرادة هنا وهى التى كانت تعبد من دون الله .

(١٢) (وأنه أهلك عادا الأولى) وهم قوم هود عليه السلام ، ويسمون عاد ابن إرم بن سام بن نوح كما قال : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ؟ » وقد كانوا من أشد الأمم وأقواهم وأعتاهم على الله ورسوله ، فأهلكهم « بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأخرى من ولد عاد الأولى .

(١٣) (وثمود فما أبقى) أى وأهلك ثمود فما أبقى عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر .

ونحو الآية قوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(١٤) (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدءوا بالظلم ، و« من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » وأطغى منهما وأكثر تجاوزا للحد ، لأنهم

سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ويمشى إليه يحذره منه ويقول يابنى إن أبى مشى بى إلى هـذا وأنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه لايتأثر من دعائه له .

(١٥) (والمؤتفكة أهوى. فغشاها ماغشى) أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم وجعل عاليها سافلها ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود كما قال : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » وهـذا ماعناه سبحانه بقوله : فغشاها ماغشى .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

شرح المفردات

الآلاء : النعم واحـدها ألى (بالفتح والكسر) وتتمارى : تمترى وتشك ، والخطاب للإنسان ، هـذا نذير من النذر : أى إن محمدا بعض من أُنْذِر ، أزفت : قربت ، والآزفة : الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أو لدنوها من الناس كما جاء فى قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » من دون الله : أى من غيره ، كاشفة : أى نفس

تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ، والحديث : القرآن ، سامدون : أى لاهون غافلون من سمد البعير فى سيره إذا رفع رأسه ، فاسجدوا : أى اشكروا على الهداية ، واعبدوا : أى اشتغلوا بالعبادة والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قبلُ ماجاء فى صحف موسى وإبراهيم ، من أن الإحياء والإماتة بيد الله ، وأنه هو الذى يصرّف أمور العالم خلقا وتدبيرا وملكا ، فيُفقر قوما ويغنى آخرين ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت رسلها وأنكرت الخالق فأصابها ما أصابها — قفى على هذا بالتعجب من أمر الإنسان ، وأنه كيف يتشكك فى هذا ويجادل فيه منكرا له ، وقد جاء النذير به ، فعليكم أن تصدقوه وتؤمنوا به قبل أن يحل بكم عذاب يوم عظيم قد أزف ، ولا يقدر على كشفه أحد إلا هو ، فلا تعجبوا من القرآن منكرين ، ولا تضحكوا منه مستهزئين ، وابكوا حزنا على مافرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، واسجدوا شكرا لبارئ النسم الذى أوجدها من العدم ، واعبدوه بكرة وعشيا شكرا على آلائه ، وتقلبكم فى نعمائه .

الإيضاح

(فبأى آلاء ربك تتمارى) أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان تمترى وتشك ؟

ونحو الآية قوله : « يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟ » وقوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » وقوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

والمراد بالنعم ماعدده من قبل ، وجعلت كلها نعما ، و بعضها نقم ، لما فى النقم من المواعظ والعبر للمعتبرين من الأنبياء والمؤمنين .

والخلاصة — إنها كلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته ، ففى أيها تتشكك على وضوحها للناظرين ، ووجوه دلالتها للمعتبرين ؟

(هذا نذير من النذر الأولى) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم منذر من ربه من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، بسىء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل الذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبوهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال كفاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى تترى عليهم .

ونحو الآية قوله : « إِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير العُرْيان » أى الذى أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس شيئا ، وبادر إلى إنذار قومه وجاءهم مسرعا .

(أزفت الآزفة) أى اقتربت الساعة ، ونصب الميزان ، وستجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، فاحذروا أن تكونوا من الهالكين ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون .

ونحو الآية قوله : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » وفى الحديث « مثلى ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين إصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام .

(ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لاتشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجِدّوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

(١) وحدانية الله بقوله : (فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) .

(٢) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (هذا نذير) .

(٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : (أزفت الآزفة) .

ثم أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به وإعراضهم عنه فقال:

(أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولاتبكون. وأنتم سامدون) أى أفينبغى لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ؟ وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله بقوله : « وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » وكيف تلهون عن استماع عِبَره ، وتغفلون عن مواعظه ، وتتلقونها تلقى اللاهى الساهى المعرض عما يسمع ، غير المكترث بما يلقى إليه .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيث » الآية بكى أصحاب الصُّفَّة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم ، فبكينا ببكائه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لايلج النار من بكى من خشية الله تعالى ، ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

ثم بيّن مايجب عند سماع القرآن من الإجلال والتعظيم فقال :

(فاسجدوا لله واعبدوا) أى فاخضعوا وأخلصوا له العمل حنفاء غير مشركين به ، فهو الذى أنزله على عبده ورسوله هاديا و بشيرا لكم لعلكم ترحمون ، ودعوا ما أنتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام التى لاتغنى عنكم شيئا ، فلا تدفع عنكم ضرًّا ، ولا تجديكم نفعا كما قال آمرا رسوله أن يقول لهم: « مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ » .

ماتضمنته السورة الكريمة من الأسرار والأحكام

(١) إنزال الوحى على رسوله .
(٢) إن الذى علمه إياه هو جبريل شديد القوى .
(٣) قرب رسوله من ربه .
(٤) إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الملكية مرتين .
(٥) تقريع المشركين على عبادتهم للأصنام .
(٦) توبيخهم على جعل الملائكة إناثا وتسميتهم إياهم بنات الله .
(٧) مجازاة كل من المحسن والمسىء بعمله .
(٨) أوصاف المحسنين .
(٩) إحاطة علمه تعالى بما فى السموات والأرض .
(١٠) النهى عن تزكية المرء نفسه .
(١١) الوصايا التى جاءت فى صحف إبراهيم وموسى .
(١٢) النعى على المشركين فى إنكارهم الوحدانية والرسالة والبعث والنشور .
(١٣) التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه ، وغفلتهم عن مواعظه .
(١٤) أمر المؤمنين بالخضوع لله والإخلاص له فى العمل .

ســـورة القمر

هى مكية إلا قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » فمدنية .

وعدة آيها خمس وخمسون نزلت بعد الطارق .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) مشاكلة آخر السورة السابقة لأول هذه فقد قال هناك : أزفت الآزفة ، وقال هنا : اقتربت الساعة .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هـذه قد فصلت ماجاء فى سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التى كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذى أشار إليه فى السابقة بقوله: « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى » فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ إِلَى شَىْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) .

شرح المفردات

اقتربت : أي دنت وقربت ، وانشق القمر : أي انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين ، آية : أي دليلا على نبوتك ، مستمر : أي مطرد دائم ، أهواءهم : أي ما زينه لهم الشيطان من الوساوس والأوهام ، مستقر : أي منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ، الأنباء أخبار القرون الماضية وما حاق بهم من العذاب جزاء تكذيبهم للرسل ، واحدها نبأ ، بالغة : أي واصلة غاية الإحكام والإبداع ، تغن : أي تفيد وتنفع ، والنذر : واحدهم نذير بمعنى منذر ، فتولّ عنهم : أي لاتجادلهم ولا تحاجهم ، نكر : أي أمر تنكره النفوس إذ لاعهد لها بمثله ، خشعا : واحدهم خاشع : أي ذليل والأجداث : القبور ، مهطعين : أي مسرعين إليه منقادين ، عسر : أي صعب شديد الهول .

المعنى الجملى

يخبر سبحانه باقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها وأن الأجرام العلوية يختل نظامها على نحو ماجاء في قوله : «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» روى أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا سَفٌّ يسير ، فقال: والذى نفسى بيده ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بُعِثْت أنا والساعةَ هكذا ، وأشار بإصبعيه السبَّابة والوسطى » .

ثم ذكر أن الكافرين كلما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا وكذبوا بها وقالوا إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضا ؛ ثم أخبر أن أمرهم سينتهى بعد حين

وسيستقر أمرك ، وسينصرك الله عليهم نصرا مؤزّرا ، ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جد كافية لهم لو أن لهم عقولا يفكرون بها فيما هم قادمون عليه ، ولكن أنّى تغنى الآيات والنذر عن قوم قد أضلهم الله على علم وختم على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ؟ . ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم ، وسيخرجون من قبورهم أذلاء ناكسى الرءوس مسرعين إلى إجابة الداعى يقول الكافرون منهم هذا يوم شديد حسابه ، عسر عقابه .

الإيضاح

(اقتربت الساعة) أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة ، وقرب انتهاء الدنيا وهذا كقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » .

(وانشق القمر) أى وسينشق القمر وينفصل بعضه من بعض حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض ، ونحو هذا قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة .

ويرى جمع من المفسرين أن هذا حدث قد حصل ، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة على الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا» .

وجاء عنه أيضا : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش: هذا سحر ابن أبى كبشة . فقال رجل انتظروا مايأتيكم به السُّفَّار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس ، فجاء السفار فأخبروهم بذلك، رواه أبو داود والطيالسى» وفى رواية البيهقى « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه ، فأنزل الله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر » .

والذى يدل على أن هذا إخبار عن حدَث مستقبل لاعن انشقاقٍ ماضٍ ـ أمور :

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجىء الساعة ، والظاهر تجانس الخبرين وأنهما خبران عن مستقبل لاعن ماض .

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التى لو حصلت لرآها من الناس من لايحصى كثرة من العرب وغيرهم ، ولبلغ حدا لايمكن أحدا أن ينكره، وصار من المحسوسات التى لاتدفع ، ولصار من المعجزات التى لايسع مسلما ولا غيره إنكارُها .

(٣) ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر ، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحادا ، بل كانوا لايعدّون كثرة .

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابى الجليل خطب الناس يوم الجمعة فى المدائن حين فتح فارس فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : اقتربت الساعة وانشق القمر ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة ، فهذا الكلام من حذيفة فى معرِض قرب مجىء الساعة وتوقع أحداثها ، لافى كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول وإثباتا لنبوته ، لأن ذلك كان فى معرض العظة والاعتبار .

وبعد أن ذكر قرب مجىء الساعة وكان ذلك مما يستدعى انتباههم من غفلتهم ، والتفكير فى مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به من الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته، والمؤيدة

لصدقه ، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعى لهم إلى الرشاد ، والهادى لهم إلى سواء السبيل ، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال :

(وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أى وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك ، وترشدهم إلى صدق ماجئت به من عند ربك ، يعرضوا عنها ويولوا مكذبين بها منكرين أن يكون ذلك حقا ، ويقولوا تكذيبا منهم بها : هذا سحر سحرنا به محمد ، وهو يفعل ذلك على مرّ الأيام .

وفى هذا إيماء إلى ترداف الآيات ، وتتابع المعجزات .

وقال الكسائى والفرّاء واختاره النحاس : إن المراد بالمستمر الذاهب الزائل عن قرب ، إذ هم قد عللوا أنفسهم ومنّوها بالأمانى الفارغة ، وكأنهم قالوا : إن حاله عليه السلام وما ظهر من معجزاته إن هى إلا سحابة صيف عن قريب تقشع ، ولكن أيهات أيهات ، فقد غرّتهم الأمانى (وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أى وكذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به أهواؤهم ، لجهلهم وسُخْف عقولهم .

والخلاصة — إنهم كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم وتركوا حججه وقالوا : هو كاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال ، وساحر يسترهب الناس بسحره ، إلى أشباه هذا من مقالاتهم التى تدل على العناد وعدم قبول الحق .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(وكل أمر مستقر) أى وكل شىء ينتهى إلى غاية تشاكله ، فأمرهم سينتهى إلى الخذلان والعذاب الدائم فى الآخرة ، وأمرك سينتهى إلى النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

وهذه قاعدة عامة تنضوى تحتها حركات الكواكب والأفلاك ونظم العمران وأعمال الأفراد والأمم .

وقصارى ذلك — إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيصل إلى غاية يتبين عندها أنه الحق ، وأن ما سواه هو الباطل ، وقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت ، والباطل يزهق بحسب ما وضعه فى نظم الخليقة (البقاء للأصلح) .

ثم ذكر أنهم فى ضلال بعيد ، فإن ما جاء فى القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون ، قال :

(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أى ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك واتبعوا أهواءهم ـ من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل فأحل الله بهم من العقوبات ما قصه فى كتابه ـ ما يردعهم و يزجرهم عما هم فيه من القبائح ، إذ أبادهم فى الدنيا وسيعذبهم يوم الدين جزاء وفاقا لما دنسوا به أنفسهم من الشرك بربهم وعصيان رسله ، واجتراحهم للسيئات .

ثم بين الذى جاءهم به فقال :

(حكمة بالغة) أى هذه الأنباء غاية الحكمة فى الهداية والإرشاد إلى طريق الحق لمن اتبع عقله وعصى هواه .

(فما تغن النذر) أى إن النذر لم يبعثوا ليلجئوا الناس إلى قبول الحق ، و إنما أرسلوا مبلغين فحسب ؛ فليس عليك ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى ، فإذا بلّغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها فى نحو قوله « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وتول عنهم بعدئذ .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

ثم أمر رسوله ألا يجادلهم ولا يناظرهم فإن ذلك لا يجدى نفعا فقال :

(فتول عنهم) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين المكذبين ولا تحاجهم ،

فإنهم قد بلغوا حدا لايقنعون معه بحجة ولا برهان ، فأحرى بك ألا تلتفت إلى نصحهم وإرشادهم ، فقد عييت بأمرهم ، وبَرِمْتَ بعنادهم .

(يوم يدعو الداع إلى شيء نكر) أى واذكر حين ينادى الداعى إلى شئ فظيع تنكره نفوسهم ، إذ لاعهد لها بمثله ، وهو موقف الحساب وما فيه من أهوال .

وقد جرت العادة أن من ينصح شخصا لايؤثر فيه النصح أن يعرض عنه ويقول لسواه ما فيه نصح للمعرَض عنه ، وهدايته وإرشاده لو أراد .

ثم ذكر حال الكافرين فى هذا اليوم فقال :

(خشّعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون ، كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى – جراد قد انتشر فى الآفاق .

وجاء تشبيههم فى الآية الأخرى بالفراش فى قوله « يَوْمَ يَكُونُ النَّاس كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » .

وهم يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين لايهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لاجهة لها تقصدها ، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب .

(مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) أى مسرعين إلى الداعى لايخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون هذا يوم شديد الهول سيء المنقلب .

ونحو الآية قوله : « فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لاعسر فيه ولا مشقة .

قصص بعض الأنبياء مع أممهم

(١) قصص قوم نوح

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) .

شرح المفردات

وازدجر : أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف ، فانتصر : أى فانتقم لى منهم ، منهمر : أى كثير كما قال :

أعيناى جودا بالدموع الهوامرِ ... على خير بادٍ من مَعَدٍّ وحاضر

فالتقى الماء : أى ماء السماء وماء الأرض ، على أمر : أى على حال ، قد قدر : أى قد قدّره الله فى الأزل ، ذات ألواح : أى ذات خُشُب عريضة ، دسر : أى مسامير واحدها دسار ككتب وكتاب ، بأعيننا : أى بمرأى منا والمراد بحراستنا وحفظنا ، كفر : أى جحد به وهو نوح عليه السلام ، تركناها : أى أبقينا السفينة ، آية : أى علامة ودليلا ، مدكر : أى متذكر ومعتبر ، ونذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ، يسرنا : أى سهلنا ، للذكر : أى للعظة والاعتبار ، مدكر : أى متعظ بمواعظه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لوتذكروا لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئا - أردف هذا بذكر قصص من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا بدعا فى الأمم ، بل كثير منهم فعلوا فعلهم بل كانوا أشد منهم عتوا واستكبارا ، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت ، فلا تأس على ما فرط منهم ولا تبتئس بما كانوا يفعلون كما جاء فى قوله سبحانه: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

وفى هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم ، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم ، وينجى نبيه والمؤمنين كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التى أحلها بأممهم .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذب قبل قومك قومُ نوح فكانوا أسوة لمن بعدهم من المكذبين للرسل .

ثم فصل هذا التكذيب بقوله :

(فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) أى فكذبوا عبدنا نوحا ونسبوه إلى الجنون ، وزجروه وتوعدوه لئن لم ينته ليكونن من المرجومين .

وأضاف العبد إليه فى قوله « عَبْدَنَا » للإشارة إلى أنه لم يعبد سواه ، فهو فى جميع أفعاله لله ؛ وإلى أنه صادق فى دعواه النبوة ، فهو لا ينطق عن الهوى ، فتكذيبهم له قبيح غاية القبح ، بالغ نهاية العتوّ والإنكار .

ثم بين أنه عيل بهم صبرا ، وضاق بهم ذرعا فدعا عليهم فقال :

(فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) أى فدعا نوح ربه قائلا إن قومى قد غلبونى تمردا وعتوا ولا طاقة لى بهم ، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك .

وقصارى ذلك — انتصر لك ولدينك ، فإنى قد غُلبت وعجزت عن الانتصار لهما .

ثم أخبر سبحانه أنه قد أجاب دعاءه فقال :

(ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) أى فصببنا عليهم ماء ثجاجا من السماء ؛ وتقول العرب فى المطر الوابل : جرت ميازيب السماء . روى أنهم طلبوا المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا .

وفى الآية إيماء إلى أن الله انتصر منهم ، وانتقم بماء لابجند أنزله .

(وفجرنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة .

(فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى فالتقى الماء أى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله وهو هلاكهم بالطوفان .

والخلاصة — إن الله أرسل ماء السحاب مدرارا ، وأخرج من الأرض ماء ثجاجا ، فالتقى الماءان فأحدثا طوفانا على وجه الأرض ، فأغرق به قوم نوح ، ونجا نوح بركوب سفينته التى بناها كما أشار إلى ذلك فى هود بالتفصيل وأشار إليه هنا بقوله :

(وحملناه على ذات ألواح ودسر) أى وأنقذناه من الطوفان فحملناه على سفينة ذات خشب ومسامير .

وجاء فى سورة العنكبوت « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق مايريد من المسببات بحسب السنن التى وضعها فى الخليقة ، وأنه يمهل الظالمين ، ولا يهملهم كما جاء فى الحديث « إن ربك لايهمل ولكن يمهل وتلا قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) » .

ثم أشار إلى أنه كان محروساً بعناية الله وكلاءته فقال :

(تجرى بأعيننا) أى تجرى محفوظة بحراستنا ، فقد كانت بمرأى منا ونحن نكلؤها ونرعاها ، كما يرعى المرء مايراه بعينه ، ويقع تحت سمعه وبصره ،

ويقول القائل إذا وصى آخر على أمر وشدد عليه : اجعله نُصْب عينيك أى اهتم به ولا تهمله .

ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم ، وكفرهم بربهم فقال :

(جزاء لمن كان كفر) أى فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا ، وجحودهم بنعمائنا ، وتكذيبهم برسولنا .

ثم ذكر أنه أبقى السفينة عبرة لمن بعدهم على كر الدهور والأعوام فقال :

(ولقد تركناها آية) أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحا ومن معه ـ عبرة لمن بعده من الأمم ، ليدّبروا ويتعظوا ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة ؛ وقد رووا أن الله حفظها آمادا طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجوديّ . وقال قتادة أبقاها الله بباقِرْدَى من أرض الجزيرة حتى أدركتها أوائل هذه الأمة .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » .

(فهل من مدّكر ؟) أى فهل من معتبر بتلك الآية الحَرِية بالاعتبار ، الجديرة بطويل التفكير والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر ؟) أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أفظع إنذارى لهم بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد ، وعظيم التهديد ، لكل باغ عنيد ، ساخط على الرسل ، مكذب بربه .

والخلاصة — انظر كيف كان عذابى لمن كفر بى ، وكذب رسلى ، وكيف انتصرت لهم ، وأخذت أعداءهم بما يستحقون ؟ .

ثم ذكر أن هذا القصص وأمثاله إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصا تاريخيا يتلى فقال :

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) أى ولقد سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، وملأناه بأنواع العبر والمواعظ ، ليتعظ به من شاء ، ويتدبر من أراد « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » وقوله : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .

(فهل من مدّكر) أى فهل من متعظ به ، مزدجر عن معاصيه ، أى ما أقل من تذكر به ، واتعظ بأمره ونهيه .

(٢) قصص عاد قوم هود

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الريح الصرصر: الباردة أشد البرد ، والنحس : الشؤم ، منقعر : أى مقتلع من أصوله ؛ يقال قعرتُ النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص قوم نوح وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر ، أعقبه بقصص عاد قوم هود ، ليبين للمكذبين أن عاقبة كل مكذب الهلاك والبوار وإن تعددت أسبابه .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

فقد أرسل الله عليهم ريحا عاصفا ، لصوتها صرير حين هبوطها فى يوم شؤم عليهم ، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار ، وكانت الريح لشدتها تقتلع الناس من الأرض وترفعهم إلى السماء ثم ترمى بهم على رءوسهم ، فتندقّ رقابهم ، وتبين من أجسامهم ، فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسوله ، كما هى سنة الله فى أمثالهم من المكذبين .

الإيضاح

(كذبت عاد) أى كذبت عاد نبيهم هودا فيما أتاهم به عن الله ، كما كذبت قوم نوح من قبلهم نبيهم .

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابى إياهم وعقابى لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هودا ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغىّ والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء لما يلقى إليهم قبل ذكره ،

وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فاسمعوا كيف كان عذابى وإنذارى لهم .

ثم فصل ما أجمله أولا فقال :

(إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) أى إنا بعثنا إلى عاد إذ تمادوا فى طغيانهم وكفرهم بربهم ريحا شديدة الموصوف فى برد ، لصوتها صرير فى زمن شؤم ونحس عليهم ، إذ ما زالت مستمرة حتى أهلكتهم .

ونحو الآية قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » وقوله : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة. وما روى من شؤم بعض الأيام فلا يصح شىء منه ، فالأيام كلها لله ، لاضرر فيها لذاتها ، ولا محذور منها ، ولا سعد فيها ولا نحس ، فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشر لهم ، فكل منها يتصف بالأمرين

ألا إنما الأيام أبناء واحد		وهذى الليالى كلها أخوات

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس وينسبون فى ذلك أبياتا لعلى كرم الله وجهه ، لايصح منه شىء ، وإنما هو نزعات شيعية لاتستند إلى ركن من الدين ركين .

(تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) أى تقتلعهم حتى يصيروا كأنهم أعجاز نخل قد انقلع من مغارسه فى الأرض .

وفى الآية إيماء إلى أن الريح كانت تقتلع رءوسهم فتبقى الأجسام ولارءوس لها ، وإلى أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال كالنخل ، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم فى الأرض وقصدوا بذلك مقاومة الريح ، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة لشدة بردها .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا كيف كان عذابى وإنذارى ،

وقد كرره تعظيما لشأنه ، وهذه سنة فى بليغ الكلام ، فى باب النصح والإرشاد ، وباب التهديد والوعيد ، وقد يكون الأول إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثانى إلى عذاب الآخرة كما جاء فى قصصهم فى آية أخرى « لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) الكلام فيه كسابقه فلا نعيده .

(٣) قصص ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) .

شرح المفردات

بالنذر : أى بالرسل ، وتكذيب صالح تكذيب لهم جميعا لاتفاقهم جميعا على أصول الشرائع ، والسعر : أى الجنون؛ ومنه ناقة مسعورة : إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة ، والذكر : الوحى ؛ والمراد بالغد وقت نزول العذاب بهم ، والأشر شديد البطر ؛ والبطر: دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ،

فتنة : أى امتحانا واختبارا ، فارتقبهم: أى فانتظرهم ، واصطبر: أى واصبر على أذاهم، والشِّرْب : النصيب ، محتضر : أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ، صاحبهم: هو قُدار بن سالف أحَيْمرِ ثمود ، فتعاطى : أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، فعقر : أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، صيحة واحدة: هى صيحة صاحها جبريل عليه السلام ، والهشيم : ما تهشم وتفتت من الشجر، والمحتظِر : الذى يعمل الحظيرة فيتساقط منه بعض أجزاء وتتفتت حال العمل .

المعنى الجملى

قص الله علينا قصص ثمود مع نبيها صالح ، إذ قالوا : أنحن العدد الجمّ ، والكثرة الساحقة ، نتبع واحدا منا لا امتياز له عنا ؟ إنا إذا فعلنا ذلك لفى ضلال وبعد عن محجة الصواب ، وإنه لكاذب فيما يدعيه من الوحى عن ربه ، وما هو إلا بشر وليس بملك ، فقال لهم ربهم : سيعلمون بعد وقت قريب من الكذاب البطر ؟ وقد جعلنا ناقته فتنة واختبارا لهم ، فأمرناه أن يخبرهم بأن ماء البئر يقسم بينها وبينهم ، فلها يوم ولهم آخر ، فما ارتضَوْا هذا وقام فاسقهم قُدار وعقر الناقة فخرت صريعة ، فجازاهم الله فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالهشيم الذى يتفتت حين بناء حظيرة الماشية .

الإيضاح

(كذبت ثمود بالنذر) أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقه ، وهم وإن كذبوا صالحا فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعا ، لاتفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجىء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال :

(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟) أى أنتبع واحدا من الدهماء ، لامن عِلْيَةِ

القوم ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرئ منا بعلم ظاهر ولا ثروة وغنى تجعله يدّعى أن يكون الزعيم لنا .

ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم :

(إنا إذا لفى ضلال وسعر) أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوى ، وجانبنا الصواب ، وصرنا لامحالة إلى الجنون الذى لايرضى به عاقل لنفسه .

روى أن صالحا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ، فعكسوا عليه مقالهم بعتوهم واستكبارهم فقالوا : إنا إن اتبعناك كنا كما تقول :

ثم بالغوا فى العتو والإنكار وتعجبوا من أمره ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا :

(أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر) أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وأوتى النبوة وهو واحد منا ؟ وكيف اختصه الله بإنزال الشرائع عليه وهو ليس بملك مكرّم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويودّ أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له وتهديدا لقومه ووعيدا لهم فقال :

(سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ؟) أى سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوى — من الكذاب البطر الذى حمله بطره على ما فعل ، أصالح فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ؟

وقصارى ذلك — سيتبين لهم أنهم هم الكذابون الأشرون .

وأورد الكلام على طريق الإبهام للإشارة إلى أنه مما لايخفى ، جريا على أساليبهم كقوله تعالى آمرا رسوله أن يقول للمشركين : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله :

فلئن لقيتك خاليَيْن لتعلمنْ		أيّى وأيُّك فارسُ الأحزاب

ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال :

(إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) أى إنا مخرجو الناقة من الهضْبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختبارا لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه ويكفرون به ؟ .

(فارتقبهم واصطبر) أى فانتظر ماذا هم فاعلون ؟ وأبصر ماذا هم صانعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى وأخبرهم أن ماء البئر التى لهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعل القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم .

(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) أى فملّت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص من الناقة ، فنادوا قُدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقرها وحضّوه على ذلك ، فلبّى طلبهم وتناولها بيده وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة .

ثم ذكر عقابهم الفظيع فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر ؟) قد سبق تفسير هذا .

ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أى إنا أرسلنا جبريل فصاح بهم صيحة فصاروا كالحشيش البالى الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمد بعيد .

وقصارى ذلك — إنهم بادوا عن آخرهم ولم تبق منهم باقية ، وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) مر بيان هذا .

(٤) قصص قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) .

شرح المفردات

حاصبا : أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصا ، قال فى الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، والحَصَبَ (بفتحتين) ما تحصب به النار : أى ترمى ، وكل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به ، والسحر : السدس الأخير من الليل ، وقال الراغب : السحر والسُّحْرة : اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار ، والبطش : الأخذ الشديد بالعذاب ، فتماروا بالنذر : أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ، راودوه عن ضيفه : أى صرفوه عن رأيه فيهم فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، فطمسنا أعينهم : أى فحجبناها عن الأبصار فلم تر شيئا ، بكرة : أى أول النهار ، مستقرّ : أى دائم بهم إلى أن يهلكوا .

المعنى الجملى

ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبيهم ومخالفتهم إياه، واجتراحهم من السيئات مالم يسبقهم به أحد من العالمين، بإتيانهم الذكران دون النساء، ثم أردفه بذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل عليهم إلا من آمن منهم، فقد نجاهم بسحر، وما أهلكهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله فكذبوه .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط بالنذر) أى كذبت قوم لوط بآيات الله التى أنذرهم بها .

ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب ونجاة من آمن منهم فقال :

(إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى إنا عاقبناهم بإرسال ريح تحمل الحصباء، وما زالت بهم حتى دمرتهم، إلا من آمن منهم، فإنا أمرناهم بالخروج آخر الليل لينجوا من الهلاك .

ثم بين أن سبب إنجاء المؤمنين هو شكرانهم للنعمة فقال :

(نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا، وهكذا نجزى من شكرنا على نعمتنا وأطاعنا فائتمر بأمرنا، وانتهى عما نهينا عنه .

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك إلا بعد أن أنذرهم عذابه وخوفهم بأسه فقال :

(ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) أى ولقد كانوا قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به .

ثم بين جُرمهم الذى استحقوا به العذاب فقال :

(ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه ضيوفه وهم الملائكة الذين جاءوا

فى صورة شباب مُرْد حسان ، محنة من الله لهم، إذقد بعثت إليهم امرأته العجوز السوء فأعلمتهم بأضيافه ؛ فأقبلوا إليه يُهْرَعون من كل مكان ، فأغلق لوط عليهم الباب ، فجعلوا يعالجونه ليكسروه ، وهو يدافعهم و يمانعهم دون أضيافه و يقول لهم : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فقالوا له : لقد علمت مالنا فى بناتك من أرب ، و إنك لتعلم ما نريد ، فلما اشتد بينهم الصراع وأبوا إلا الدخول — طمس الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، وهذا ماعناه سبحانه بقوله :

(فطمسنا أعينهم) فجعل بعضهم يجول فى بعض ولا يرون شيئا ، ويقولون : أين ضيوفك ؟ وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة هود .

(فذوقوا عذابى ونذر) أى وقلنا لهم على ألسنة ملائكتنا : ذوقوا هذا العذاب عذاب طمس الأعين بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم وقبيح خلالكم .

ثم بين وقت مجىء العذاب فقال :

(ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور وما زال مُلِحًّا عليهم حتى أخمدهم و بلغ غايته فى دمارهم وهلاكهم .

ثم حكى ماقيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديدا للعذاب فقال :

(فذوقوا عذابى ونذر) أى فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل ، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟) هذه الجملة القسمية وردت فى آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريرا لمضمون ماسبق من قوله : (ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر) وتنبيها إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادّكار ، كافية فى الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار .

وقد جاء هذا التكرير فيما سيأتى فى سورة الرحمن من قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله فى سورة المرسلات : « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وهذا كثير فى كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هامّ الأمور ، كقول مهلهل فى رثاء أخيه كليب حين قتل :

قرّبا مربط النعامة منّى لقحت حرب وائل عن حيالى
قرّبا مربط النعامة منّى شاب رأسى وأنكرتنى عيالى

وهى طويلة جارية على هذا : النعامة فرسه ، ولقحت : أى حملت .

---

(٥) قصص آل فرعون

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) .

شرح المفردات

النذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ؛ وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلى الله عليه وسلم ، عزيز : أى لايغالب ولا يُغلب ، مقتدر : أى لايعجزه شىء .

الإيضاح

(ولقد جاء آل فرعون النذر) أى وتالله لقد توالت عليهم الإنذارات ، وجاءتهم الآية تلو الآية فكذبوا بها .

ثم أبان مافعلوه على توالى النذر فقال :

(كذبوا بآياتنا كلها) أى كذبوا بأدلتنا وبرهاناتنا التى أرسلناها إلى موسى ، وقد تقدم ذكرها فى سورة الأعراف .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) أى فعاقبناهم بكفرهم بالله ـ عقوبة مقتدر على مايشاء غير عاجز ولا ضعيف .

توبيخ قريش على كفرهم بربهم
وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) .

شرح المفردات

براءة : أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، والزبر : الكتب السماوية واحدها زبور ، يولون : أى يرجعون ، والدبر : أى الأدبار هاربين منهزمين ، والساعة : هى القيامة ، موعدهم : أى موعد عذابهم ، أدهى : أى أعظم داهية وهى الأمر الفظيع الذى لايهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، وأمرّ : أى أشد مرارة فى الذوق؛ والمراد الشدة والهول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، وفصّل ما أصيبوا به من عذاب الله الذى لامرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله ـ أعقب هذا بتنبيه كفار قريش إلى أنهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم فستحل بهم سنتنا ، ويحيق بهم من البلاء مثل ماحل بأضرابهم من المكذبين من قبلهم ، ولا يجدون منه محيصا ولا مهربا ، ثم خاطبهم خطاب إنكار

وتوبيخ فقال لهم : علام تتكلون ، وماذا تظنون ؟ أأنتم خير ممن سبقكم عددا وكثرة مال و بطشا وقوة ، أم لديكم صكّ من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون أنكم جمع كثير لايمكن أن ينال بسوء ، ولا تصل إلى أذاكم يدٌ مهما أوتيت من القوة ؟ كلا إن شيئا من هذا ليس بكائن، وإنكم ستهزمون وتولون الأدبار فى الدنيا وسيحل بكم قضاء الله الذى لامفر منه ، وما سترونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالا ، فأفيقوا من غفلتكم ، وأنيبوا إلى ربكم ، عسى أن يرحمكم .

الإيضاح

(أكفاركم خير من أولئكم) أى أكفاركم يامعشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابى ونقمتى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى .

وتلخيص المعنى — ما كفاركم خير ممن سبقهم ، فهم ليسوا بأكثر منهم قوة ، ولا أوفر عددا ، ولا ألين شكيمة فى الكفر والعصيان والضلال والطغيان ، بل هم دونهم فى كل ذلك ، وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم ، فكيف يطمعون فى المهرب من مثل ذلك ، فليثوبوا إلى رشدهم ، وليرجعوا عن غيّهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

ثم انتقل من توبيخهم الأول إلى توبيخ أشد منه فقال :

(أم لكم براءة فى الزبر) أى أم لكفاركم صك بالبراءة من تبعات ماتجترحون من السيئات ، وأن ربكم لن يعاقبكم على ماتدسّون به أنفسكم من الشرور والآثام ؟ فأنتم على هذا الصك تعتمدون ، وبهذا الوعد آمنون ، حقا إنكم لتطمعون فى غير مطمع ، وليس بين أيديكم ولا قُلامة ظُفْر من هذا ـ فعلام تتكلون ؟ وإلام تستندون ؟

(أم يقولون نحن جميع منتصر) أى أم هم يقولون نحن واثقون بشوكتنا، فنحن قوم أمرنا مجتمع، لانرام ولا نضام، وإنا منصورون على من قصدنا بسوء، أو أراد حربنا وتفريق جمعنا.

وجماع القول — إنه تعالى سدّ عليهم المسالك، ونقض جميع المعاذير التى ربما تعللوا بها فى عدم تصديقهم بالرسول، وفى كفرهم بآيات ربهم، فقال لهم: لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ماحل بمن قبلكم؟ أأنتم أقل كفرا وعنادا منهم، فيكون ذلك سبب الأمن من حلول مثل عذابهم بكم؟ أم أعطاكم الله براءة من عذابه؟ أم أنتم أعز منهم جندا فأنتم تنتصرون على جند الله؟

ثم رد عليهم مقالهم وأبان لهم أنهم يعيشون فى بحر من الأوهام، وأن قضاء الله سيحل بهم، وسيهزمون ويولون الأدبار متى جاء قضاؤه فقال:

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى سيتفرق شملهم ويُغلبون حين يلتقى جيشهم وجيش المؤمنين، وقد صدق الله وعده، فانهزموا وولوا الأدبار يوم بدر، وكان هذا دليلا من دلائل النبوة، فإن الآية نزلت بمكة ولم يكن له صلى الله عليه وسلم يومئذ جيش، بل كان أتباعه مشرّدين فى الآفاق، يلاقون العذاب من المشركين فى كل صوب، حتى لقد قال عمر رضى الله عنه: لما نزلت لم أعلم ماهى؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول: سيهزم الجمع فعلمته — ثم استمر انهزامهم بعد.

روى البخارى عن ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قُبّة له يوم بدر: أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبد بعد اليوم فى الأرض أبدا؛ فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال: حسبك يارسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب فى الدرع ويقول: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)».

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا وسيلاقون يوم القيامة ماهو أشد منه نكالا فقال :

(بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ) أى إن ماسيلاقونه من العذاب فى الدنيا من الهزيمة والقتل والأسر - هين إذا قيس على ما سيلاقونه من العذاب فى الآخرة ، فإن ذا أشد وآلم ، فهو عذاب خالد دائم ، وسيأتى بعدُ وصف مافيه من فظاعة ونكر .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) .

شرح المفردات

المراد بالمجرمين : المشركون كما جاء فى قوله : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ». فى ضلال : أى فى الدنيا عن الحق ، وسعر : أى نيران واحدها سعير ، يسحبون : أى يجرّون ، سقر : اسم لجهنم ، ومسها : حرها ، بقدر : أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أمرنا : أى شأننا ، واحدة : أى كلة واحدة وهى قوله (كن) كلمح البصر: أى فى اليسر والسرعة ، أشياعكم : أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ؛ وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، مدكر : أى متعظ ، فى الزبر : أى فى كتب الحفظة ، مستطر : أى مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله ، نهر : أى

فى نور وضياء ، فى مقعد صدق : أى فى مكان مرضى ، عند مليك مقتدر : أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب الأمم الماضية لرسلها كما كذبت قريش نبيها ، وأعقبه بذكر ما أصابهم فى الدنيا من العذاب والهوان — أردف ذلك بذكر ماسينالهم من النكال والوبال فى الآخرة ، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سوقا ، إهانة وتحقيرا لهم ، ويقال لهم حينئذ توبيخا وتعنيفا : ذوقوا عذاب النار وشديد حرها ، ثم أعقبه ببيان أن كل شىء فهو بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ؛ ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ويرون ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(إن المجرمين فى ضلال وسعر) أى إن المشركين بالله المكذبين لرسله — فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعماية عن الهدى فى الدنيا ، وعذاب أليم فى نار جهنم يوم القيامة .

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة والإذلال حينئذ فقال :

(يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) أى يعذبون ويهانون يوم يجرون على وجوههم فى النار ، ويقال لهم إيلاما وتعنيفا : ذوقوا حر النار وآلامها جزاء وفاقا لتكذيبكم رسل ربكم فى كل ماجاءوا به من الإنذار بهذا اليوم ، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب ، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب .

ثم بين أن كل ما يوجد فى هذه الحياة فهو لايحدث اتفاقا ، وإنما يحصل بقضاء الله وقدره فقال :

(إنا كل شىء خلقناه بقدر) أى إن كل كائن فى هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها فى الخليقة .

ونحو الآية قوله : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » وقوله : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » وفى الحديث الصحيح « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل : قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل لو أنى فعلت لكان كذا ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفّت الأقلام ، وطُويت الصحف » .

وبعد أن بين نفاذ قدره فى خلقه بين نفاذ مشيئته فيهم فقال :

(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنا إذا أردنا أمرا قلنا له كن فإذا هو كائن ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية ولا ثالثة ، ولله در القائل :

إذا أراد الله أمرا فإنما يقول له (كن) قولة فيكون

وهذا تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الخلق ، فهى كلمح البصر أو هى أقرب .

وجماع القول - ما أمرنا للشىء إذا أردنا إيجاده إلا قولة واحدة (كن) فيكون لامراجعة فيها ولا ردّ ، فهى فى السرعة كلمح البصر لا إبطاء ولا تأخير .

ثم أنبهم على ما هم فيه من غفلة وعماية عن الحق بعد وضوحه فقال :

(ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر؟) أى ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قريش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا فى أمثالهم ، بشتى العقوبات ، ومختلف الوسائل « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم

مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » أفلا كان لكم فى ذلك مزدجر تعتبرون به فتنيبوا إلى ربكم وتسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ؟ .

ونحو الآية قوله : «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» .

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال :

(وكل شىء فعلوه فى الزبر. وكل صغير وكبير مستطر) أى وكل شىء تفعلونه ، فتدسون به أنفسكم من الكفر والمعاصى ، وتدنسونها به من الأرجاس والآثام فهو مقيد لدى الكرام الكاتبين كما قال : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» فما من صغيرة أو كبيرة إلا وهى مسطورة فى دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، فلتحذروا أيها الناس ما أنتم عليه قادمون من الحساب العسير على الجليل والحقير ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقَّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالبا » .

وقيل :

لا تحقرنّ من الذنوب صغيرا   إن الصغير غدا يعود كبيرا
إن الصغير وإن تقادم عهده   عند الإله مسطّر تسطيرا
فاسأل هدايتك الإله فتتئد   فكفى بربك هاديا ونصيرا

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة فى ذلك اليوم ـ أردفه بما يناله المتقون من الكرامة عند ربهم ، وما يحظون به من الشرف والزلفى ، على حسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب والعكس بالعكس فقال :

(إن المتقين فى جنات ونهر. فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) أى إن الذين اتقوا عقاب ربهم بطاعته وأداء فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل فى السر والعلن ، يثيبهم بما عملوا جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور

من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على شاقّ الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات ، كما قيل للربيع بن خَيْثم وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه : أتعبت نفسك ، فقال : راحتَها أطلُب .

كما ينالون الزلفى عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنّته فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب ، وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا فى زمرتهم واجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطَّوْل العظيم .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

(١) الإخبار بقرب مجىء الساعة .

(٢) تكذيب المشركين للرسول وقولهم فى معجزاته : إنها سحر مفترى .

(٣) غفلتهم عما فى القرآن من الزواجر .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى يأتى قضاء الله فيهم .

(٥) إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسى الرءوس مسرعين كأنهم جراد منتشر .

(٦) قصص المكذبين من سالفى الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، وما لاقوه من الجزاء على تكذيبهم .

(٧) توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر .

(٨) ما يلاقونه من الجزاء فى الآخرة إهانة وتحقيرا لهم .

(٩) بيان أن كل ما فى الوجود فهو بقضاء الله وقدره .

(١٠) نفاذ مشيئة الله وسلطانه فى الكون .

(١١) بيان أنّ كل أعمال المرء فى كتاب قد خطه الكرام الكاتبون .

(١٢) ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم وما لهم من الزلفى لديه .

سورة الرحمن

هى مكية وعدّة آيها ثمان وسبعون ، نزلت بعد سورة الرعد .

ووجه صلتها بما قبلها :

(١) إن فيها تفصيل أحوال المجرمين والمتقين التى أشير إليها فى السورة السابقة إجمالا فى قوله : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » وقوله : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » .

(٢) إنه عدّد فى السورة السابقة ما نزل بالأمم التى قد خلت من ضروب النقم وبين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس وإيقاظهم ، ثم نعى عليهم إعراضهم ــ وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية فى الأنفس والآفاق ، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب شكرها .

(٣) إن قوله : « الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » كأنه جواب سائل يقول : ماذا صنع المليك المقتدر ، وما أفاد برحمته أهل الأرض ؟ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) .

شرح المفردات

الرحمن: اسم من أسماء الله الحسنى ، والإنسان هو هذا النوع ، البيان : تعبيرالإنسان عما فى ضميره و إفهامه لغيره ، بحسبان : أى بحساب دقيق منظم ، والنجم: مالاساق له من النبات كالحنطة والفول ، والشجر : ما له ساق كالنخل والبرتقال ، يسجدان : أى ينقادان لله طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، رفعها : أى خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، والميزان : العدل والنظام ، وأقيموا الوزن بالقسط : أى قوّموا وزنكم بالعدل ولا تخسروا الميزان : أى لاتنقصوه ، للأنام : أى للخلق ، والأكمام : واحدها كِمّ (بالكسر) وعاء الثمر ، والعصف : ورق النبات الذى على السنبلة ، والريحان : كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها إَلًى (بفتح الهمزة وكسرها) و إِلْىٌ و إِلْوٌ .

المعنى الجملى

بين سبحانه ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده ، رحمة بهم فأفاد :

(١) أنه علم القرآن وأحكام الشرائع لهداية الخلق و إتمام سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

(٢) أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم وكمله بالعقل والمعرفة .

(٣) أنه علمه النطق و إفهام غيره ، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل .

(٤) أنه سخر له الشمس والقمر والنجوم على نظام بديع ووضع أنيق لحاجته إليها فى دنياه ودينه .

(٥) أنه سخر له النجم والشجر ليقتات منهما .

(٦) أنه رفع السماء وأقامها بالحكمة والنظام .
(٧) أنه أوجد الأرض وما فيها من نخل وفاكهة وحب ذى عصف وريحان .

الإيضاح

(الرحمن علم القرآن) أى الله سبحانه علّم محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ، ومحمد علمه أمته .

وهذه الآية نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » .

ولما كانت هذه السورة لتعديد نعمه التى أنعم بها على عباده ــ قدم النعمة التى هى أجلها قدرا وأكثرها نفعا، وأتمها فائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن الكريم ، فباتباعه تكون سعادة الدارين ، وبالسير على نهجه تنال الرغائب فيهما وهو سنام الكتب السماوية ، وقد نزل على خير البرية .

ثم امتنّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال :

(خلق الإنسان علمه البيان) أى خلق هذا الجنس وعلمه التعبير عما يختلج بخاطره ويدور بخلده ، ولولا ذلك ما علم محمد القرآن لأمته .

ولما كان الإنسان مدنيا بطبعه لايعيش إلا مجتمعا بسواه ــ كان لابد له من لغة يتفاهم بها مع سواه من أبناء جنسه ويكتب إليه فى الأقطار النائية ، والبلاد النازحة ، ويحفظ علوم السلف ، لينتفع بها الخلف ، ويزيد فيها اللاحق ، على ما فعل السابق .

وهذه منة روحية كبرى لاتعدلها منة أخرى فى هذه الحياة ، ومن ثم قدمها على النعم الأخرى الآتية .

وقد بدأ أوّلا بما يتعلم وهو القرآن الذى به السعادة ، ثم ثنى بالتعلم ، ثم ثلث بطريق التعلم وكيفيته ، ثم انتقل إلى ذكر الأجرام العلوية التى ينتفع بها الناس فى معاشهم فقال :

(الشمس والقمر بحسبان) أى إن الشمس والقمر وهما من أعظم الأجرام يجريان فى بروجهما ومنازلها بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان انتفع بهما الناس فى شئون الزراعات كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها فى كل فصل من الفصول ، وفى الأمور المالية من بيع وشراء لآجال محدودة من شهور وسنين ، وفى تقدير الأعمار والآجال التى تقدمت ، وجاءت فى أخبار الماضين ، والتى ستكون للحاضرين .

وبعد أن ذكر أن الشمس والقمر طوع قدرته وقد جعل لهما النظم الدقيقة فى الحسبان ـ أردفه بانقياد العوالم الأرضية له فقال :

(والنجم والشجر يسجدان) أى والزرع والشجر ينقادان لله فيما أراد بهما طبعا كما ينقاد المكلف اختيارا ، فما اختلافهما فى الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعم والرائحة ، إلا انقياد للقدرة التى أرادت ذلك .

(والسماء رفعها ووضع الميزان) أى وجعل العالم العلوى رفيع القدر ، إذ هو مبتدأ أحكامه ، ومتنزَّل أوامره ونواهيه لعباده ، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ، وجعل نظم العالم الأرضى تسير على نهج العدل ، فعدلٌ فى الاعتقاد كالتوحيد ، إذ هو وسط بين إنكار الإله والشرك به ، وعدل فى العبادات والفضائل والآداب ، وعدل بين القوى الروحية والبدنية ، فأمر عباده بتزكية نفوسهم وأباح لهم كثيرا من الطيبات لحفظ البدن ، ونهى عن الغلوّ فى الدين والإسراف فى حب الدنيا ، وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما فى هذا العالم لا يغادر الصغير ولا الكبير منه .

(ألا تطغوا فى الميزان) أى فعل ذلك لئلا تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغى من العدل والنَّصَفة وجرى الأمور وفق ما وُضع لكم من سنن الميزان فى كل أمر ، فترقى شئونكم ، وتنتظم أعمالكم وأخلاقكم .

ثم أكد هذا بقوله :

(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) أى قوّموا وزنكم بالعدل ، ولا تنقصوه شيئا ؛ وفى هذا إشارة إلى مراعاته فى جميع أعمال الإنسان وأقواله .

والتكرير للتوصية به وتأكيد الأمر باستعماله والحث عليه ، وقد أمر سبحانه أوّلا بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحد ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

وقال قتادة فى هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أن يُعْدل لك ، وأوْفِ كما تحب أن يُوفَّى لك ، فإن فى العدل صلاح الناس .

وبعد أن ذكر نعمه الدالة على قدرته برفع السماء ذكر مقابلها وهو الأرض فقال :

(والأرض وضعها للأنام) أى والأرض بسطها لسكنى الحيوان من كل ما له روح وفيه حياة لينتفع بما فى ظاهرها وباطنها فى معايشه على ضروب مختلفة وأشكال لاحصر لها .

ثم فصل ما تقدم بقوله :

(فيها فاكهة) أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار طازجة ومطبوخة ومجففة على شتى الأشكال وضروب الألوان .

(والنخل ذات الأكمام) أى والنخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره ، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جُمّارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

(والحب ذو العصف والريحان) أى وجميع الحبوب التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته .

وذكر أولا الفاكهة ، لأنها للتفكهة فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء

ثم الحب الذى عليه المعول فى الغذاء فى جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله فى سائر البلاد ، وجعل النخل فى البلاد الحارة دون غيرها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به فى العبادة دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم .

والتعبير (بالرب) للإشارة إلى أنها نعم صادرة من المالك المربى لهما الذى يغذيهما أجساما وعقولا ، فهو الحقيق بالحمد والشكر على ما أولى وأنعم ، والعبادة له دون سواه .

وقد كررت هذه الآية فى واحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، فتراه عدّد نعمه على الخلق وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وهذا أسلوب كثير الاستعمال فى كلام العرب : فترى الرجل يقول لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها ، ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ، ألم تكن خاملا فرفعت قدرك ، أفتنكر هذا ؟.

فكأنه سبحانه قال : ألم أخلق الإنسان . وأعلمه البيان . وأجعل الشمس والقمر بحسبان . وأنوّع الشجر . وأبدع الثمر . وأعممها فى البدو والحضر ، لمن آمن بي وكفر . وأسقيها حينا بالمطر ، وآونة بالجداول والنّهَر . أفتنكران ذلك أيها الإنس والجن ؟.

وقد جاء مثل هذا فى أشعارهم : انظر قول مهلهل يرثى أخاه كليبا :

على أنْ ليس عِدْلا من كليب إذا ماضيم جيران المجير
على أنْ ليس عدلا من كليب إذا خرجت مخبّأةُ الخدور

على أن ليس عدلا من كليب إذا خيف المخوف من الثغور

على أن ليس عدلا من كليب إذا ما خار جأش المستجير

وهى قصيدة طويلة على هذا النسق ، ولها نظائر أيضا فى رثائه ، ولولا خشية التطويل لأوردنا شيئا منها . وعدلا أى مثلا ونظيرا .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) .

شرح المفردات

الصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقر ، والفخار : الخزف وهو الطين المطبوخ ، والجان : نوع من الجن ، والمارج : اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، رب المشرقين : أى مشرقى الشمس صيفا وشتاء ، ورب المغربين : أى مغربيهما كذلك ، مرج البحرين : أى أرسلهما وأجراهما من قولهم مرجتُ الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه ، يلتقيان : أى يتجاوران وتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، برزخ : أى حاجز ، لا يبغيان : أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال خاصته ، واللؤلؤ : الدر المخلوق فى الأصداف ، والمرجان : الخرز الأحمر ،

الجوارى : السفن الكبار ، المنشئات : أى المصنوعات ، والأعلام : الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه كثيرا من النعم وكان بعضها يحتاج إلى زيادة إيضاح وبيان كخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وأسباب نمو الزرع والشجر - فصل أحوالها على الترتيب السابق .

الإيضاح

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار) أى خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين يابس له صلصلة إذا نقر ، وهو كالخزف المطبوخ فى صلابته .

إيضاح هذا أن الطين المطبوخ مركب من الطين والحرارة التى أنضجته وسوّته لتحفظ كيانه؛ وهكذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج ، لتبقى بنيته وتدوم حياته بالمادة الأرضية التى اجتذبها النبات من الأرض ؛ وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقائه وحياته ، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر ، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ، وهذه القوة فى الإنسان تقابل طبخ الطعام ليصير فخارا ، فتتماسك أجزاؤه ، ولولاها لما استطاع المحافظة على هيكله المنصوب ، وجسمه المحبوب ، من الكواسر وأهل القسوة من بنى الإنسان ، ولأصبح قتيلا فى الفلوات تأكله الطير ، أو تهوى بأجزائه الريح فى مكان سحيق ؛ كما أن الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح أو يذوب فى أجزاء الأرض .

وقد جاء فى الكتاب الكريم عبارات مختلفة فى خلق الإنسان باعتبار مراتب الخلق ؛ فمرة قال إنه خلقه من تراب وأخرى قال إنه من طين لازب : أى لاصق باليد لما اختلط به الماء ، وهنا قال من صلصال .

(وخلق الجانّ من مارج من نار) أى وخلق الجن من النار الصافية المختلط بعضها ببعض ، فمن لهب أصفر إلى أحمر إلى مشوب بالخضرة ؛ فكما أن الإنسان من عناصر مختلفات ، فالجانّ من أنواع من اللهب مختلطات .

ولقد أظهر الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة ، ولفظ (المارج) يشير إلى ذلك ، وإلى أن اللهب مضطرب دائما .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

روى نافع عن ابن عمر قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال : مالى أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم ؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ما أتيت على قول الله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالت الجن : لا بشىء من نعمة ربنا نكذب » .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان قال :

(رب المشرقين ورب المغربين) أى رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان ؟ أفتنكران الأمطار وفوائدها ؟ أم تنكران ما لاختلاف الفصول من منافع ، فبها تختلف صنوف المزروعات من صيفية إلى شتوية ، أم تنكران ما لاختلاف الأجواء من مزايا فى تنظيم مزاج الإنسان والحيوان .

ولما ذكر نعمه التى تترى على عباده فى البر أعقبها بنعمه عليهم فى البحر فقال :

(مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا يبغى أحدهما على الآخر ؛ فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من

قدرته ، أو بحاجز من الأجرام الأرضية ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة ، ويجرى شمالا حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبغى أحدهما على الآخر .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه المنافع تكذبان ؟ إذ لو بغى الملح على العذب لم تجد ماء للشرب ولا لسقى الحيوان والنبات ولم تجد ما تقتات به ، فتهلك جوعا ، ولو بغى العذب على الملح لم تجد ما يصلح الهواء ويمنع عاديات الجراثيم التى فيه .

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقد ثبت فى الكشف الحديث أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان وإن كان الغالب أنه لايستخرج إلا من الماء الملح .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

(وله الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار التى رفعت شرعها فى الهواء كالجبال الشاهقة ، تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، فتنقل المتاجر من بلد إلى آخر ، والأقوات من إقليم هى كثيرة فيه إلى آخر هو محروم منها ، وبذا يتمّ تبادل السلع ، وسدّ حاجات الأمم فى أقواتها ومشاربها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان – أبخلق مواد السفن أم بكيفية تركيبها ، أم بإجرائها فى البحر بأسباب لايقدر عليها غيره سبحانه .

أىْ عبادى ، هل ظننتم أن مجرد الإيمان كاف لكم فى شكر هذه النعم ، فهل خلقت الشمس والقمر والنجم والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدر والمرجان لقوم لايعقلون ، أو خلقتها لقوم يقبلون منى النعمة ، وكيف يقبلونها دون أن يعرفوها؟.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) .

شرح المفردات

فان : أى هالك ، وجه ربك : أى ذاته ، ذو الجلال والإكرام : أى ذو العظمة والكبرياء ، يسأله من فى السموات والأرض : أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه فى ذواتهم حدوثا و بقاء وفى سائر أحوالهم بلسان المقال أو بلسان الحال ، هو فى شأن : أى فى أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصا ويجدد أحوالا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر النعم التى أنعم بها على عباده فى البر والبحر ، فى السماء والأرض ، أردف ذلك ببيان أن هذه النعم تفنى ولا تبقى ، فكل شىء يفنى إلا ذاته تعالى ، وكل من فى الوجود مفتقر إليه فهو المدبر أمره والمتصرف فيه ، فهو يحيى قوما ويميت آخرين ، ويرفع قوما ويخفض آخرين .

الإيضاح

(كل من عليها فانٍ . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) أى إن جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون ، وكذلك أهل السموات ، ولا يبقى سوى وجه ربك الكريم ، فإنه الحى الذى لا يموت أبدا .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ ، وقد ورد فى الدعاء المأثور يا حى يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ،

برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحدمن خلقك .

ثم وصف سبحانه نفسه بالاستغناء المطلق ، والفضل العام ، وأنه ذو الفضل والكبرياء ، يعطى خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خَلَقه .

انظر إلى هذه النجوم الثواقب فى ظلمات الليل ، تَرها مشرقة ساطعة تتلألأ نورا تنشرح له الصدور ، وتقرّ به العيون ، فتتجلى لك عظمة الخالق وكبرياؤه ، تموت الأحياء ، وتلك النجوم باقية ، والأرض لم تتغير على ما نشاهد ، وهذا مظهر الجلال والعظمة ، جمال فى النجوم ، بهجة فى الإشراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة أجسام عظيمة، أحوال تتقلب ، وأهوال تتعاقب ، والناس من بينها يخرون صعقين ، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ، فسبحان الخلاق العظيم .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ فالفناء باب للبقاء وللحياة الأبدية ، والنعم السرمدية ، ولولا تحليل أجسامنا بالموت لتعطلت الحياة ، إذ المادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت قواها محدودة ، لكن انبعاث الصور الكثيرة وتعاقبها جيلا بعد جيل يلبس المادة جميع الصور والأشكال ويجعل العالمَ فى تجدد مستمر .

انظر إلى بنى الإنسان مثلا إذا توالدوا جيلا بعد جيل ولم يمت منهم أحد ، فلا تمضى إلا أجيال معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين ، فلا يكفيهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ولا يجدون وسيلة للعيش إلا أن يأكل بعضهم بعضا ، وتمتلئ الأرض رمما آدمية من السغَب والمخْمَصة .

والخلاصة — إن فى الفناء نعمتين . نعمة الرحمة بتعاقب الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح العالم الروحى والتمتع بنعيم آخر بعد الموت .

ولما كان ما ذكر يتضمن الافتقار المتجدد إليه تعالى أوضحه بقوله :

(يسأله من فى السموات والأرض) إذ أن المادة دائما تلبس جديدا وتخلع قديما ، فأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال ، فهما فى حاجة إلى بقاء الأجسام وتغذيتها و إذا انحل جسم افتقر إلى شىء يعوض ما ذهب ، فالتغيرات المستمرة افتقار ، وهذا الافتقار مستمر فى كل لحظة ، وذلك يدعو إلى السؤال من الواهب المعطى إما بالنطق و إما بتوجه النفس وطلبها العون والمدد والفيض من فضله .

وجماع القول — إن المادة مفتقرة إلى بقاء ما يناسبها ، فالنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقيه من ماء وهواء ومواد أخرى ، والحيوان يطلب ما يحتاج إليه ، والإنسان يسأل ما هو فى حاجة إليه : إما سؤال حال ، و إما سؤال مقال فى كل وقت وآن .

(كل يوم هو فى شأن) فمن شئونه أنه يحيى ويميت ويرزق ويعزّ ويذل ، ويُمرض ويشفى ، ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب ، ويرحم ويغضب ، إلى نحو أولئك .

ومن شئونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم ، وتباين أغراضهم .

عن عبد الله بن منيب قال : تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا يارسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر . وقال ابن عيينة : الدهر عند الله يومان . يوم الدنيا وشأنه فيه الأمر والنهى ، والإماتة والإحياء ، ويوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب ، وسأل عبدالله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية، وماصح من قوله صلى الله عليه وسلم «جفّ القلم بماهو كائن إلى يوم القيامة» فقال: شئون يبديها، لاشئون يبتديها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ فكم من سؤال

أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته ، إما بصحة تُسْعِده ، أو بموت من سجن المادة يخرجه .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) .

شرح المفردات

سنفرغ لكم : اى سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، والمراد التوفر على الجزاء والانتقام منهما .

قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه كما هنا اهـ .

والثقلان : الجن والإنس كما علمت ، أن تنفذوا : أى تخرجوا ، والأقطار : الجوانب واحدها قطر ، والسلطان : القوة والقهر ، والشواظ : اللهب الخالص ، والنحاس : الدخان الذى لا لهب فيه ، قال النابغة الذبيانى :

تضىء كضوء السراج السليـــط لم يجعل الله فيـه نحاسا

فلا تنتصران : أى فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكما منه ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه نعماءه على عباده فى البر والبحر وفى الأرض والسماء ، ليشكروه على ما أنعم ، ويعبدوه وحده على ما أعطى وتمم ، وذكر أنهم مفتقرون

إليه آناء الليل وأطراف النهار ، ثم أرشد إلى أن هذه النعم لاتدوم ، بل هى إلى زوال ، فكل ما على وجه الأرض سيفنى ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات نبههم إلى أنه فى يوم القيامة سيلقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، ولا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، وسيكون جزاء المشركين به العاصين لأوامره ، نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى الذى كفر بربه وكذب برسله ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنقصد لحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم ، وهذا وعيد شديد وتهديد من الله لعباده ، كما يقول القائل لمن يهدده : إذاً أتفرغ لك: أى أقصد قصدك .

هذا وإن شأن الآخرة ماهو إلا شأن من الشئون ، فلا يشغله شأن عن شأن وهو القائل : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » والقائل : « وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعم ربكما تكذبان يامعشر الثقلين ، ومن جملتها التنبيه إلى ماستلقونه من الجزاء فى هذا اليوم ، تحذيراً مما سيؤدى إلى سوء الحساب ، وشديد العقاب .

ثم ذكر أنه لامهرب فى هذا اليوم من جزاء كل عامل على عمله فقال :

(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من عقاب الله ، فارّين من عذابه فافعلوا ، والمراد أنكم لاتستطيعون ذلك ، فهو محيط بكم لاتقدرون على الخلاص منه ، فأينما ذهبتم أحيط بكم .

ثم بين السبب فى عدم إمكان المهرب فقال :

(لاتنفذون إلا بسلطان) أى إن المهرب إنما يكون بالقوة والقهر ، وأنى لكم بهما ؟ وممن تستمدونهما وأنتم لاتجدون إذ ذاك حولا ولا طولا ؟.

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) ومن جملتها النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسيء عن إساءته ، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم دون مهلة ، والعفو عن المذنب مع كمال القدرة عليه من أجل النعم التى يسديها الله إلى عباده .

ثم بين السبب فى طلب المهرب فقال :

(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) أى يصب عليكما ألوان من النيران ، فمن لهب خالص يضىء كضوء السراج ، إلى نار مختلطة بالدخان ، فلا تستطيعان المهرب منها ، بل يسوقكم إلى الحشر سوقا .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالإنعام على الأول والانتقام من الثانى من أجلّ نعم الإله القادر على جزاء عباده .

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) .

شرح المفردات

انشقت : تصدعت ، وردة : أي كالوردة في الحمرة ، والدهان : مايدهن به : أي كانت مذابة كالدهان ، والسيما : العلامة ، والنواصي : واحدها ناصية وهي مقدم الرأس ، والأقدام : واحدها قدم ، وهي قدم الرجل المعروفة ، والحميم : الماء الحارّ ، وآنٍ : أي متناهٍ في الحرارة لايستطاع شربه من شدة حرارته .

المعنى الجملي

بعد أن عدد عزت قدرته نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لابقاء لها ولا ثبات ، ثم ذكر أن الناس محاسبون على الصغير والكبير من أعمالهم ، وسيلقون الجزاء عليها ، ولا مهرب حينئذ منها ، ولا نصير ينقذهم مما سيحل بهم من العذاب — ذكر هنا أنه إذا جاء ذلك اليوم اختل نظام العالم ، فتتصدع السموات ويحمر لونها وتصير مذابة غير متماسكة كالزيت ونحوه مما يدّهن به ، ويكون للمجرمين حينئذ علامات يمتازون بها عن سواهم ، فيتعرفهم الرأى لهم دون حاجة إلى سؤال نكالا وخزيا لهم ، ثم يجرون إلى جهنم من نواصيهم وأرجلهم ، ويقال لهم توبيخا وتقريعا : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها ، وينتقل بهم من جهنم إلى ماء حار كالمهل يشوى الوجوه ؛ ومن عذاب إلى ماهو أشد منه .

الإيضاح

(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) أي فإذا جاء يوم القيامة تصدعت السموات واختلت نظمها ، وتبعثرت أجرامها وكواكبها عن مداراتها ، واحمر لونها وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه مما يدّهن به .

ونحو الآية قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ »

وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ . وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » وقوله : « وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » .

والخلاصة — إنها تذوب كما يذوب درديء الزيت والفضة حين السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدّهن بها ، فتارة تكون حمراء وأخرى تكون صفراء وثالثة تكون زرقاء .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن الإخبار بنحو ماذكر مما يزجر عن الشر ، فهو لطف أىّ لطف ، ونعمة أيما نعمة .

(فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف .

ونحو الآية قوله تعالى : « هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ ، وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » ثم يسألون بعدئذ كما يدل على ذلك قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن تخويف المجرم ليرتدع نعمة عليه حتى يرتدع عن ذنبه ، ويثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه .

ثم ذكر السبب فى عدم سؤال الإنس والجان عن ذنوبهم فقال :

(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) أى يعرف المجرمون حينئذ بعلامات يمتازون بها عن سواهم ، فلا حاجة حينئذ إلى السؤال والجواب ، لأن السيما ميزت كل مجرم بنوع جُرْمه .

ولقد اهتدى الإنسان بعقله إلى فوائد هذه العلامات فى الدنيا ، فأنشأت الحكومات إدارات خاصة لعلامات المشتبه فى سلوكهم ومعتادى الإجرام ، فتأخذ إبهاماتهم وتحفظها فى أضابير خصيصى بهم، ولكل امرئ خطوط فى إبهامه لاتشابه خطوط غيره فيه ولا يحصل فيها التباس ، فمتى أحدث أحدهم حدثا وجاء بجُرْم

روجع ملفه الخاص واستخرجت صورة إبهامه من ملفه وطبقت على الصورة الخارجية ولاقى فى المحاكم مايستحقه من عقاب .

والخلاصة — إن لكل امرئ أحوالاً تخصه فى جسمه وعقله وأخلاقه ، يعرف الناس منها الآن قليلا ، وبقية علمها عند الله يُعْلِمها ملائكته يوم القيامة فيعرفون المجرمين بها .

ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصى ، وأخرى بأخذ الأقدام ، روى عن الضحاك «أن الملَك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ، ثم يكسر ظهره ويلقيه فى النار ، وقيل : تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحبا بالناصية ، وبعضهم سحبا بالقدم ، ولا نجزم بشىء من ذلك إلا بالنص القاطع .

وهذا الوضع معهم سبيل من سبل الإهانة والإذلال والنكال .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ماسلف حذو القُذَّة بالقذَّة .

(هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آنٍ) أى ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، فها أنتم الآن قد شاهدتموها ورأيتموها رأى العين ، فذوقوا عذابها واشربوا من الحميم الذى يقطع الأمعاء والأحشاء فأنتم بين الجحيم والحميم .

والخلاصة — إنهم إذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآنى الذى صار كالمهل (دردىء الزيت : أى عكره) .

ونحو الآية قوله : «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ماقيل فيما سلف .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١).

شرح المفردات

الخوف فى الأصل : توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أو محققة ، وضده الأمن ؛ ويراد به هنا الكفّ عن المعاصى مع فعل الطاعات ، ومقام ربه : أى قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، جنتان : أى جنة روحية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ماعمل فى الدنيا ، وقيل إنهما منزلان ينتقل بينهما لتتوافر دواعى لذته ، وتظهر آثار كرامته ، ذواتا : مثنى ذات بمعنى صاحبة ، والأفنان : الأنواع واحدها فنّ : أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، زوجان : أى صنفان رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه فى الفضل والطيب ، والفرش : واحدها فراش ، والبطائن : واحدها بطانة ، والإستبرق : الديباج أى الحرير الثخين ، والجنى : الثمر ، دان : أى قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قاصرات الطرف : أى نساء يقصرن أبصارهن على

أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم ، لم يطمثهن : أى لم يمسسهن ، وأصل الطمث: خروج الدم ، ويراد به قربان النساء ، كأنهن الياقوت : أى فى الصفاء ، والمرجان : أى صغار اللؤلؤ فى البياض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مايراه المشركون بربهم والعاصون لأوامره ونواهيه من الأهوال من إرسال الشواظ من النار عليهم ، ومن أخذهم بالنواصى والأقدام ، إهانة لهم واحتقارا ، ومن التنقل بهم بين النار والحميم الآنى الذى يشوى الوجوه — ذكر هنا ماأعده من النعيم الروحى والجسمانى لمن خشى ربه وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دانٍ لمن طلبه وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد لامن الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بياضا ، وذلك كفاء ماقدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

الإيضاح

(ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان؟) أى ولمن خشى ربه وراقبه فى أعماله ، وأيقن بأنه مجازيه عليها يوم العرض والحساب ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، فإذا هو همّ بمعصية ذكر الله وأنه عليم بسره ونجواه ، فتركها مخافة عقابه ، وشديد حسابه ، ففعل الخير وأحب الخير للناس — جنتان: جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس ، وجمال الملكوت ورضا الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » وجنة جسمانية بمقدار ماعمل فى الدنيا من خير ، وقدم من صالح عمل ،

فبأى نعم ربكما أيها الثقلان تكذبان ، فبإثابته المحسن منكم بما وصف، وعقابه العاصى بما عاقب من النعم العظمى ، والمنن الكبرى .

(ذواتا أفنان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ذواتا أنواع وألوان من الأشجار والثمار من قولهم « أفتن فلان فى حديثه إذا أخذ فى فنون منه وضروب مختلفة ، والمتنوقون فى الدنيا يتنقلون من فاكهة إلى أخرى فيكون ذلك أدعى إلى زيادة اللذة ، وأكثر شهوة للطعام ، كما قال قائلهم :

ومن كل أفنان اللذاذة والصِّبا   لهوتُ به والعيشُ أخضر ناضرُ

(فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسبيل قاله الحسن البصرى . وقال أبو بكر الوراق: تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل ، فتجريان فى كل مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه ، كما تصعد المياه فى الأشجار فى كل غصن منها وإن زاد علوها .

(فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما من كل فاكهة صنفان : رطب ويابس ، لاينقص أحدهما عن الآخر لذة وطيبا ، بخلاف ثمار الدنيا فإن الطازج فيها ألذ طعما وأشهى مأكلا .

وبعد أن ذكر طعامهم ذكر فراشهم فقال :

(متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظهائر ؛ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو أخبرتم بالظهائر ؟. وقيل لسعيد ابن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وبمثله قال ابن عباس .

وفى هـذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم .

وإنما ذكر الاتكاء ، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب ، إذ العليل لايستطيع أن يستلقى أو يستند إلى شىء ، وهو مشغول القلب يتحرك تحرك المحضَر للعقاب .

(وجنى الجنتين دانٍ . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وثمرهما قريب إليهم متى شاءوا ، ونحو الآية قوله : « قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ » وقوله : « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً » فهى لاتمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها .

ثم ذكر أوصاف النساء اللواتى يمتعون بهنّ فقال :

(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئا فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسسهن أحد قبل أزواجهن لامن الجن ولا من الإنس .

(كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضا .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية : فى صفاء الياقوت و بياض اللؤلؤ .

ثم بين السبب فى هذا الجزاء فقال :

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة .

ونحو الآية قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

وعن أنس بن مالك قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هَلْ جَزَاء

الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ ، وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : ماجزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى ، وروى عن ابن عباس «هل جزاء من قال : لاإله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة »

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) .

شرح المفردات

ومن دونهما : أى من ورائهما وأقل منهما ، مدهامتان : أى خضراوان بسواد ؛ لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الرى بالماء ونحوه ، نضاختان أى فوارتان بالماء ، والنضخ : فوران الماء ، حور : واحدتهن حوراء : أى بيضاء . قال ابن الأثير : الحوراء هى الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، خيرات : أى

خيّرات بالتشديد خفف كما جاء فى الحديث «هيْنون ليْنون» ، مقصورات فى الخيام: أى مخدرات ؛ يقال امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لاتطوف فى الطرق . قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعتلّ من إتيانهن فتعذر

والخيام : واحدها خيمة وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشىء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وبر فهو خباء ، والرفرف واحده رفرفة : وهى الوسادة (المخدّة) أو ماتدلّى من الأسرّة من غالى الثياب ، والعبقرىّ : منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد يسكنه الجن ويسندون إليه كل شىء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط ، تبارك اسم ربك : أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

المعنى الجملى

هذا تتميم لوصف الجنات بما يشوق الراغبين فيها ، ليعملوا ما يوصلهم إليها ، ويرضى ربهم عنهم ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(ومن دونهما جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ومن وراء هاتين الجنتين وأقل منهما فضلا جنتان تميتان النبات والرياحين الخضراء التى تضربُ إلى السواد من شدة خضرتها ، لكثرة الرى ، وأما الجنتان السابقتان ففيهما أشجار وفواكه ؛ وفرق ما بين الحالين ؛ فبأى هذه النعم تكذبان وهى نعم واضحة لاتجحد ولا تنكر .

قال الحسن : الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين لهم .

عن أبى أيوب الأنصارى قال: «سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله مدهامتان قال : خضراوان » أخرجه الطبرانى وابن مردويه .

(فيهما عينان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) النضح كالرش فهو دون الجرى ، ومن ثم قال البَرَاء بن عازب فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : « العينان اللتان تجريان خير من النضاختين » .

أى فيهما عينان تفوران بالماء . وقال مجاهد : نضاختان بالخير والبركة .

(فيهما فاكهة ونخل ورمان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) خص النخل والرمان مع دخولهما فى الفاكهة ، تنبيها إلى مالهما من ميزة عن غيرهما من الفواكه ، لأنهما يوجدان فى الخريف والشتاء ، ولأنهما فاكهة و إدام ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

(فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه .

روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: «قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى خيرات حسان ؟ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه » .

وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن . وروى أن الحور يغنّين: نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام .

(حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وهؤلاء الخيرات الحسان واسعات العيون مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسنَ بطوّافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة .

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) تقدم الكلام فى نظيره قبل .

(متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان)

أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، وبسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر .

(تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) أى تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به وتفضل من نعم غوال ، ومنن عظام .

وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض والجنة والنار ، وعذب العاصين ، وأثاب المطيعين ؛ وآتاهم من فضله ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سورة الواقعة

هى مكية إلا قوله : « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » فمدنية ، وعدة آيها ست وتسعون ، نزلت بعد طه .

ووجه مناسبتها ما قبلها :

(١) إن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) إنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم ، وبين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) إنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رجّ الأرض ، فكأنّ السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعا سورة واحدة ، مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) .

شرح المفردات

وقعت : حدثت ، والواقعة القيامة ، لوقعتها : أى لوقوعها ، كاذبة : أى كذب ، ورجت : زلزلت وحركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ، و بست : أى فتتت وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم بس فلان السويق: أى لته ، وهباء : أى غبارا ، منبثا : أى متفرقا ، أزواجا : أى أصنافا . قال الراغب : الزوج يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ولكل قرينين منها ومن غيرها كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا اهـ والميمنة ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال ؛ والعرب يتيمنون بالميامن و يتشاءمون بالشمائل ، والمراد أصحاب المرتبة السنية ، والرفعة والقدر ، والسابقون : هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا ، والمقربون : هم أرباب الحُظوة والكرامة عند ربهم .

المعنى الجملى

حين تقع الواقعة و يجىء يوم القيامة لا تكذب نفس على الله فتنكره ، إذ تحقق بالمعاينة وشهده كل أحد ، أما فى الدنيا فما أكثر النفوس المكذبة به ، المنكرة له ،

لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المعذبون فى الآخرة .

ثم وصف هذه الواقعة بأنها تخفض أقواما وترفع آخرين ، وأن الأرض حينئذ تزلزل فيندك ما عليها من جبال وأبنية ، وأن الجبال تتفتت وتصير كالغبار المنتشر فى الجو ، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجا ثلاثة : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون .

الإيضاح

(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة) أى إذا قامت القيامة لا يكون لوقعتها ارتداد ولا رجعة كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهر قاله الحسن وقتادة ؛ وقد يكون المعنى - ليس فى وقت وقوعها كذب ، لأنه حق لاشبهة فيه .

ثم هوّل شأنها وعظم أمرها فقال :

(خافضة رافعة) أى هى خافضة لأقوام ورافعة لآخرين قاله ابن عباس ، إذ الوقائع العظيمة شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول من ذل الأعزة وعزّ الأذلة .

وفى هذا إيماء إلى ما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء إلى درجات الجنات ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياءه إلى الجنة .

(إذا رجت الأرض رجا) أى إذا وقعت الواقعة تزلزل الأرض زلزالا وتضطرب اضطرابا شديدا طولا وعرضا ، فتندك الحصون والجبال ، وتهدم البيوت والصياصى . قال الربيع بن أنس : ترجّ بما فيها كرج الغرْبال بما فيه .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » وقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

(وبست الجبال بسّا) أى وتفتت الجبال تفتتا وصارت كثيبا مهيلا بعد أن كانت شامخة .

(فكانت هباء منبثا) أى فصارت كالهباء المنبث الذى ذرّته الريح وفرقته . وقال قتادة : صارت كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح .

والخلاصة — إن الجبال تزول عن أماكنها حينئذ ، وتنسف نسفا ، وتكون كالعهن المنفوش .

(وكنتم أزواجا ثلاثة) أى وصرتم أصنافا ثلاثة ، وكل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين ، فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معا زوجان ، فهاهنا أزواج ثلاثة لا زوجان .

ثم فصل هذه الأزواج فقال :

(فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) أى فأصحاب الميمنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أىُّ شىء هم فى حالهم وصفتهم وسعادتهم ؟ والمراد أنهم فى حال هى الغاية فى الحسن والكمال .

ولا يخفى ما فى هذا من تفخيم شأنهم ، وتعظيم أمرهم ، وأنهم بلغوا حدا لا يقدر قدره من السعادة .

(وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أى وأصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، أى شىء هم فى حالهم؟ والمراد أنهم بلغوا الغاية فى سوء الحال.

وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر ، والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ، ولا تجعلنى فى شمالك ، أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين اهـ .

أخرج أحمد عن معاذ بن جبل «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قبض بيديه قبضتين وقال هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى » .

(والسابقون السابقون) أى والسابقون الذين يتقدمون غيرهم إلى الطاعات — هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت فخامة أمورهم ، وقد يكون المعنى والسابقون إلى طاعة الله تعالى هم السابقون إلى رحمته سبحانه ، فمن سبق فى هذه الدنيا إلى فعل الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى دار الكرامة ، فالجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » أخرجه أحمد .

(أولئك المقربون. فى جنات النعيم) أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا حظوة عند ربهم ، وهم فى جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) .

شرح المفردات

الثلة : الجماعة قلّت أو كثرت ، وقيل الجماعة الكثيرة من الناس كما قال :

وجاءت إليهـــم ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ   بجيش كتيّار من السيل مُزْبِدِ

موضونة من الوضن وهو : النسج : والولدان : واحدهم ولد ، مخلدون : أى مبقون أبدا على هذه الصفة ، أكواب : أى آنية لاعرا لها ولا خراطيم ، أباريق : واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . قال عدىّ بن الرقاع :

ودعَوْا بالصَّبوح يوما فجاءت   به قَيْنَــة فى يمينها إبريق

كأس من معين : أى خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس وقتادة ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، لايصدعون عنها : أى لايلحقهم صداع بسببها كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا ، ولا ينزفون : أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، يقال نُزِف الشارب إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، يتخيرون : أى يختارون ويرضون ، حور : واحدتهن حوراء : أى بيضاء ، عين: واحدتهن عيناء : أى واسعة العينين ، المكنون : المصون الذى لم تمسه الأيدى وهو أصفى وأبعد من التغير قال :

قامت تراءى بين سِجْفَىْ كِلَّةٍ   كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو دُرَّة صَدَفِيّــةٍ غوّاصُها   بهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد

لغوا : أى هُرَاء لاخير فيه ، ولا تأثيما : أى ما يقال حين سماعه وقعتم فى الإثم.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة : سابقون وأصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة ـ أعقب ذلك بذكر مايتمتع به السابقون من النعيم فى فرشهم وطعامهم وشرابهم ونسائهم وأحاديثهم التى تدل على صفاء النفس وأدب الخلق وسمو العقل .

الإيضاح

(ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) أى وهم جماعة كثيرة من سالفى الأمم وقليل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويستأنس لهذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » .

(على سرر موضونة) أى على سرر منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ، قال الأعشى فى وصف الدرع :

ومن نسج داودُ مَوْضونَة تسير مع الحىِّ عِيراً فعيرا

(متكئين عليها متقابلين) أى متكئين على السرر ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، فهم فى صفاء وعيش رغد وحسن معاشرة ، لايوجد فى نفوسهم من الشحناء والبغضاء ما يوجب الافتراق .

ثم ذكر ما هم فيه من ترف ونعيم ، وأنهم مخدومون فى شرابهم وطعامهم ، مكفيون مئونة ما يريدون فقال :

(يطوف عليهم ولدان مخلدون) أى يطوف عليهم غلمان وخدم على صفة واحدة لايكبرون ولا يتغيرون ، فهم دائما على الصفة التى تسر المخدوم إذا رأى الخادم .

(بأكواب وأباريق وكأس من معين . لايصدعون عنها ولا ينزفون) أى يطوفون عليهم بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق وخمر تجرى من العيون ولا تعصر عصرا فهى صافية نقية لاتنقطع أبدا ، وهم يطلبون منها ما يريدون ، ولا صداع فى شرابها ، ولا ذهاب منها للعقل كما فى خمور الدنيا .

روى عن ابن عباس أن فى خمر الدنيا أربع خصال : السكر والصداع والقىء والبول ، نزه الله خمر الجنة عنها .

وبعد أن وصف الشراب وصف الطعام فقال :

(وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون) أى ويطوفون بألوان من الفاكهة المختلفة المطاعم ، يختارون منها ما تميل إليه نفوسهم ، وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب ، فيأخذون منها ما يشتهون ، وفيه يرغبون .

وبعد أن ذكر طعامهم وشرابهم أعقبه بذكر نسائهم فقال :

(وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون) أى ويتمتعون بنساء بيض مشرقات الوجوه تبدو عليهم نضرة النعيم ، وكأنهن اللآلئ صفاء وبهجة .

ثم ذكر السبب فى متعتهم بكل هذا النعيم فقال :

(جزاء بما كانوا يعملون) أى جازاهم ربهم على ما عملوا ، وأثابهم بما كسبوا فى الدنيا ، وزكوا به أنفسهم من صالح الأعمال ، ونصبوا له بأداء فروض دينهم على أتم الوجوه وأكملها ، فهم كانوا قوّامين لليل ، صوّامين للنهار « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

وبعد أن وصف النساء وصف حديثهم حينئذ فقال :

(لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما) أى لايسمعون اللغو الهُراء من الحديث ولا هُجْر القول وما تتقزز منه النفوس الراقية ، ذات الأخلاق العالية ، ولكن يسمعون أطيب السلام ، وسامى الكلام ، مما يستساغ كما قال سبحانه « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » .

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا

أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠).

شرح المفردات

السدر : شجر النبق ، مخضود : أى خضد شوكه أى قطع ، والطلح : شجر الموز ، منضود : أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه فليست له سوق بارزة ، ممدود : أى منبسط ممتد لايتقلص ولا يتفاوت ، مسكوب : أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، فرش : واحدها فراش كسُرُج وسِرَاج ، مرفوعة : أى عالية منضدة ، عربا : واحدتهنّ عروب كصبر وصبور ، أترابا : أى متساويات فى السن واحدتهن تِرْب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال السابقين وبين مالهم من نعيم مقيم ، فى جنات النعيم ـ أردف ذلك بذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة التى لاتنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ، ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

الإيضاح

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أى وأصحاب اليمين هم الغاية فى فخامة شأنهم ورفعة قدرهم وعلوّ منزلتهم .

وقد جاء هذا الأسلوب فى كلام العرب لإفادة المبالغة فى مدح أو ذم فيقولون فلان ما فلان .

ثم فصل ما أبهم من حالهم بقوله :

(فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لامقطوعة ولا ممنوعة) أى هم يتمتعون بجنات فيها السدر الذى قطع شوكه لا كسدر البرّية فى الدنيا ، وفيها الموز الذى ملئ ثمرا ، فلا تظهر له سيقان ، وفيها ظل ظليل يقيهم شديد الحر ووهج الشمس ، وفيها ماء مصبوب لايحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه ، وفيها ضروب من الفاكهة التى لاتنقطع أبدا ، ولاتمتنع عنهم فى وقت ، فهم يجدونها متى شاءوا وأحبوا .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(وفرش مرفوعة) أى وهم يجلسون على فرش وثيرة عالية وطيئة لاتتعب الجالس عليها .

وبعدئذ ذكر ما يتمتعون به من النساء فقال :

(إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين) أى إنا أعددناهن نساء أبكارا متحببات إلى أزواجهن، إذ هن يحسنّ التبعّل ،كلهن فى سن واحدة ، لاتمتاز واحدة عن أخرى ، وأعطيناهن لأصحاب اليمين .

وأعاد ذكر (لأصحاب اليمين) للتأكيد والتحقيق .

(ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) أى أصحاب اليمين جماعة من مؤمنى الأمم السالفة ، وجماعة من مؤمنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنما لم يقل فى حق هؤلاء جزاء بما كانوا يعملون كما قال ذلك فى حق السابقين إشارة إلى أن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) .

شرح المفردات

السموم : حر نار ينفذ فى المسامّ ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم : دخان أسود كما قال ابن عباس وابن زيد ، لابارد ولا كريم : أى لاهو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، مترفين : أى منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لايلوون على شىء مما جاء به الرسل، يصرون: أى يقيمون ولايقلعون، والحنث العظيم : أى الذنب العظيم وهو الشرك بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله ، والميقات : ما وقت به الشىء والمراد به يوم القيامة ، وسمى به لأنه وقتت به الدنيا ، وشجر الزقوم : شجر ينبت فى أصل الجحيم ، والهيم : واحدها أهيم وهو الجمل الذى يُصيبه الهيام (بالضم) وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل ، فتشرب حتى تموت أو تسقم سقما شديدا ، والنزل : ما يقدم للضيف إذا نزل ، ويوم الدين يوم الجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زوجين من الأزواج الثلاثة، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم، وشرف عظيم ، فى جنات ونعيم ، فى جملة شئونهم ، فى مآكلهم ومشاربهم وفرشهم

وأزواجهم ـ أردف ذلك بذكر الزوج الثالث ، و بين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، فهو يتظلى فى السموم و يشرب ماء كالمهل يشوى الوجوه ، ثم أعقبه بذكر السبب فى هذا ، بأنهم كانوا فى دنياهم مترفين غارقين فى ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ؛ ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتما وأن ما كلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة فى هذا اليوم .

الإيضاح

(وأصحاب الشمال ، ما أصحاب الشمال) أى أصحاب الشمال فى حال لا يستطاع وصفها ولا يقدر قدرها من نكال ووبال ، وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المبهم بقوله :

(فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) أى هم فى حر ينفذ فى المسام ، وماء متناه فى الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم يؤلم من يستظل به .

قال ابن جرير : العرب تُتْبِع هذه اللفظة (الكريم) فى النفى فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة اهـ .

وذكَرَ السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموما ، وماءهم الذى يستغيثون به حميما ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بحالهم مع أحرّها ؟.

ونحو الآية قوله تعالى : « انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

والخلاصة — إن السموم تضربهم فيعطشون ، وتلتهم تارة أحشاءهم فيشربون الماء فيُقَطِّع أمعاءهم ، ويريدون الاستظلال بظل فيكون ظل اليحموم .

ثم ذكر السبب فى تعذيبهم فقال :

(إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرّون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟) أى إنهم كانوا فى الدنيا منعمين بألوان من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة ، منهمكين فى الشهوات ، فلا جرم عذبوا بنقائضها ، إلى أنهم كانوا ينكرون هذا اليوم ويقولون : أنبعث نحن وآباؤنا الأولون ونعود كرّة أخرى وقد صرنا أجسادا بالية ، وعظاما نخرة ؟ .

والخلاصة — إنهم كانوا يتمتعون بوافر النعم وجزيل المنن ، وهم مع ذلك أصروا على كفرانهم ولم يشكروا أنعم الله عليهم ، فاستحقوا عقاب ربهم ، وكانوا مكذبين بهذا اليوم ، مستبعدين وقوعه ، وركبوا رءوسهم فلم يلووا على شىء ، وهاموا فى أودية الضلالة ، وساروا فى سبيل الغواية ، لا رقيب ولا حسيب .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر أسباب العقاب ، ولا يذكر أسباب الثواب ، لأن الثواب فضل ، والعقاب عدل ، والفضل إن ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم فى المتفضل به نقص ولا ظلم ، أما العدل فإن لم يعلم سببه فربما يظن أن هذا ضرب من الظلم .

وقد ذكروا لاستبعاد هذا البعث أسبابا :

(١) الحياة بعد الموت .

(٢) طول العهد بعد الموت حتى صارت اللحوم ترابا والعظام رفاتا .

(٣) بلغ الأمر منهم أن قالوا متعجبين : أو يبعث آباؤنا الأولون ؟

فرد الله عليهم كل هذا وأمر رسوله أن يجيبهم .

(قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أى أجبهم قائلا لهم : إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم أشد الاستبعاد ، والآخرين الذين تظنون أن لن يبعثوا ــ ليجمعون فى صعيد واحد فى ذلك اليوم المعلوم ، ولا شك أن اجتماع عدد لا يحصى كثرة أعجب من البعث نفسه .

ونحو الآية قوله فى سورة الصافات : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

ثم بين ما يلقاه أولئك المكذبون من الجزاء فى مآكلهم ومشاربهم فقال :

(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم) أى أيها الذين ضللتم أولا فأصررتم على الذنب العظيم ، إذ لم توحدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتم رسله فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم ــ إنكم لآكلون من شجر الزقوم فمالئون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك من ماء حارّ لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلا .

وخلاصة ذلك — إنه لزيادة العذاب لا ترتوون من شرب هذا الماء المنتن الحار فلا تمسكوا عنه ، بل يكون شربكم كشرب الإبل التى تشرب ولا تروى .

ثم بين أنه ليس هذا كل العذاب بل هو أوله وقطعة منه فقال :

(هذا نزلهم يوم الدين) أى هذا الزقوم المأكول ، والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار .

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم كما قال :

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافنا		جعلنا القنا والمرهفات له نُزْلا

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ
(٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢)
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

شرح المفردات

تمنون : أى تقذفونه فى الأرحام من النطف ، تخلقونه أى تقدرونه وتصورونه بشرا سويا تام الخلقة ، قدرنا : أى قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، نبدل أمثالكم : أى نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، فيما لاتعلمون : أى من الخلق والأطوار التى لاتعهدونها ، فلولا تذكرون : أى فهلا تتذكرون ذلك ، تحرثون : أى تبذرون حبه وتعملون فى أرضه ، تزرعونه : أى تنبتونه وتجعلونه نباتا يرفّ ، حطاما : أى هشيما متكسرا متفتتا لشدة يبسه بعد ما أنبتناه ، تفكهون: أى تتعجبون من سوء حاله ، مغرمون : أى معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال :

إن يعذّب يكن غراما وإن يُقْــط جزيلا فإنه لايبالى

محرومون : أى غير مجدودين ، فليس لنا جَدّ وحظ ، المزن : السحاب واحدته مزنة ، أجاجا : أى ملحا زعاقا مرا لا يصلح لشرب ولا لزرع ، لولا : بمعنى هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، تورون : أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، تذكرة : تذكيرا بالبعث ، ومتاعا : أى منفعة ، للمقوين : أى للمسافرين الذين يسكنون القواء : أى القفر والمفاوز ، فسبح : أى تعجب من أمرهم ، وقل : سبحان الله العظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها وفصل ما يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لازب فى حميم وغساق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء ــ أردف ذلك بإقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورزق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل الثالث وهو النبوة فيما بعد .

الإيضاح

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى نحن بدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى ؟ فهلا تصدقون بالبعث .

وفى هذا تقرير للمعاد ، ورد على المكذبين به ، المستبعدين له من أهل الزيغ والإلحاد الذين قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » .

ثم أعاد الدليل فقال :

(أفرأيتم ما تمنون ، ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) أى أخبرونى عما قذفتم به فى الأرحام من النطف : ءأنتم تقدرونه بشرا سويا تام الخلق أم الله الخالق لذلك ؟ .

ولا شك أنهم لايجدون إلا جوابا واحدا لا ثانى له .

والخلاصة — أخبرونى أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم بعد مماتكم ـ عن النطف التى تمنون فى أرحام نسائكم ، ءأنتم تخلقونها أم نحن الخالقون لها ؟ .

(نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ونشئكم فيما لاتعلمون) أى نحن قسمنا الموت بينكم ، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتى بأشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون من الأطوار والأحوال التى لا تعهدونها.

والخلاصة — نحن قدرنا بينكم الموت لأن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم ، ونجىء بآخرين من جنسكم ، فنحن نميت طائفة ونبدلها بطائفة أخرى قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل .

ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال :

(ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) أى لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة وهى البداية قادر على النشأة الأخرى وهى الإعادة بطريق الأولى كما قال : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » .

وفى الحديث « عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور » .

ثم أردف ذلك بدليل آخر فى الرزق فى المطعوم فقال :

(أفرأيتم ماتحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) أى أخبرونى عن الحرث الذى تحرثونه ، ءأنتم تنبتونه أم نحن الذين ننبته ؟ أى ءأنتم تصيرونه زرعا أم نحن الذين نصيّره كذلك ؟.

وروى عن حُجْر المنذرى أنه كان إذا قرأ (ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وأمثالها يقول : بل أنت يارب .

(لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون) أى نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم ، ولو شئنا لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ، فأصبح لاينتفع به فى مطعم ولا فى غذاء ، فصرتم تعجبون من سوء حاله إثر ماشاهدتم فيه من الخضرة والنضرة والبهجة والرُّواء ، وتقولون : حقا إنا لمعذبون مهلكون لهلاك أرزاقنا ، لا بل هـــذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا ، وسوء حظنا .

والخلاصة — لو نشاء لجعلناه هشيما متكسرا لشدة يبسه ، فأقمتم تعجبون مما نزل بكم ، ويعجّب بعضكم بعضا لذلك وتقولون إنا لمعذبون ، لا بل نحن محرومون غير مجدودين لنحس طالعنا وسوء حظنا .

ثم أعقبه بدليل آخر فى المشروب فقال :

(أفرأيتم الماء الذى تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) أى أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ، ءأنتم أنزلتموه من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟

(لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون) أى لو نشاء لجعلناه ملحا زعاقا لاتنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذبا زلالا ؟ «لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذى سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » .

(أفرأيتم النار التى تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) أى أفرأيتم النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، ءأنتم أنشأتم شجرتها التى منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟.

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المَرْخ بالعَفَار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العفار وبقطعة عريضة من المرخ يحفرون فى وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار فى هــذه الفجوة ، ويأتى فتى من فتيان القبيلة ويحرك عود العفار فيها بالتوالى ، ويأتى بعده آخر ويصنع صنيع سابقه ، ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان كل بيت فى القبيلة إذا رأى النار موقدة ستعار جذوة منها ، وإلى هذا أشار قوله سبحانه فى قصص موسى « إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّــكُمْ تَصْطَلُونَ » .

ثم بين منافع هذه النار فقال :

(نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) أى نحن جعلنا النار تبصرة فى أمر البعث حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ، ويذكروا بها ما أوعدوا به .

لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها فهو قادر على إعادة ماتفرقت مواده ، ومنفعة لمن ينزلون القواء والمفاوز من المسافرين ، فــكم من قوم سافروا ثم أرملوا فأججوا نارا فاستدفئوا وانتفعوا بها ؟ وقد كان من لطف الله أن أودعها الأحجار ، وخالص الحديد ، فيتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، وإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى وأوقد نارا فطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها فى وجوه المنافع المختلفة .

وفى الحديث « المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكلإ والماء » .

وقد يكون المعنى : وجعلناها تذكرة وأنموذجا من نار جهنم لما فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » .

(فسبح باسم ربك العظيم) الذى خلق هذه الأشياء بقدرته ، فخلق الماء العذب البارد ، ولو شاء لجعله ملحا كالبحار والمحيطات ، وخلق النار وجعل فيها منافع للناس فى معايشهم ، وجعلها تبصرة لهم فى معادهم .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) .

شرح المفردات

لاأقسم : هذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ، ولا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله: « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » ، ومواقع النجوم : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، مكنون : أى مصون عن التغيير والتبديل ، المطهرون : أى المنزهون عن دنس الحظوظ النفسية ، مدهنون : أى متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء — أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يرونه فى مشاهداتهم من

مساقط النجوم ، إنه لكتاب كريم لايمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل عليه السلام ، فكيف تتهاونون فى اتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم .

الإيضاح

(فلا أقسم بمواقع النجوم) أى أقسم بمساقط النجوم ومغاربها ، وإنما خص القسم بهذه الحال ، لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم ، ومن ثم استدل إبراهيم عليه السلام بالأفول على وجود الإله جلت قدرته .

وقد أقسم سبحانه بكثير من مخلوقاته العظيمة ، دلالة على عظم مبدعها ، فأقسم بالشمس والقمر ، والليل والنهار ، ويوم القيامة ، والتين والزيتون ؛ كما أقسم بالأمكنة فأقسم بطور سينين ومكة المكرمة .

ويرى أبو مسلم الأصفهانى وشرذمة من المفسرين : أنّ لا ليست مزيدة والكلام على ظاهره المتبادر منه ؛ والمعنى : لا أقسم : إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما ، فضلا عن هذا القسم العظيم .

(وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) أى وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك .

وفى هذا تفخيم المقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته ، ألا يترك عباده سدى .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال :

(إنه لقرآن كريم) أى إن هذا القرآن جم المنافع ، كثير الفوائد ، فقد اشتمل على مافيه صلاح البشر فى دنياهم وآخرتهم .

قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبينات ، والعلم والحكمة ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم

يستمد منه ويحتج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه .

(فى كتاب مكنون) أى فى لوح محفوظ مصون عن غير المقرّبين من الملائكة الكرام .

(لايمسه إلا المطهرون) أى لايمس هذا اللوح إلا المنزهون عن دنس الأرجاس والحظوظ النفسية ؛ وقد يكون المراد : لاينزل به إلا المطهرون وهم الملائكة الكرام، أو لايمس هذا القرآن إلا المطهرون من الحدث الأصغر والحدث الأكبر ، والمراد بذلك النهى أى لاينبغى أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة .

أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر والحاكم عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان الفارسى فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا ثم خرج إلينا ، فقلنا لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلونى فإنى لست أمسه ، إنما يمسه المطهرون ، ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) .

وذهب جمهور العلماء إلى منع المحدث عن مس المصحف ، وبذلك قال على وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى .

وروى عن ابن عباس والشعبى فى جماعة منهم أبو حنيفة أنه يجوز للمحدث مسه ، يراجع شرح المنتقى للشوكانى .

وقال الحسين بن الفضل : المراد أنه لايعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق .

(تنزيل من رب العالمين) أى وهو منزل نجوما من لدن رب العالمين ، فليس بالسحر ولا الكهانة ولا الشعر ، وهو الحق الذى لامرية فيه ، وليس وراءه شىء نافع .

وبعد أن بين مزاياه وأنه من لدن عليم خبير ذكر أنه لاينبغى التهاون فى أوامره ونواهيه ، بل ينبغى التمسك به فقال :

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) أى أفبهذا القرآن تتهاونون، وتوافقون باللسان وأنتم مصرون على الخلاف، فتارة تقولون إنه سحر، وأخرى تقولون إنه كهانة، وطورا تقولون إن البعث محال، أفإذا متنا وكنا ترابا أئنا لمبعوثون؟ إلى نحو هذا من أقاويلكم التى تدل على ماتكنه نفوسكم من التكذيب بالقرآن وبمن جاء به.

قال البقاعى: فهو على هذا إنكار على من سمع أحدا يتكلم فى القرآن بما لايليق به، ثم لايجاهره بالعداوة.

وابن العربى الطائى صاحب النصوص، وابن الفارض صاحب التائية أول من صوبت إليهما هذه الآية، فإنهما تكلما فى القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا ويحله عروة عروة، فهما من أضر الناس على هذا الدين، ومن يتأول لهما أو ينافح عنهما أو يعتذر لهما أو يحسن الظن بهما مخالفا إجماع الأمة — فهو أعجب حالا منهما، فإن مراده إبقاء كلامهما الذى لا أفسد للإسلام منه من غير أن يكون لابقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه اه بتصرف.

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى وتجعلون الشكر على هذا أنكم تكذبون بمن منح هذا الرزق، فتنسبونه إلى الأنواء وتقولون مُطرنا بنَوْء كذا، دون أن تقولوا أفاض الله علينا الرزق من لدنه، ومنحنا الفضل برحمته.

والخلاصة — إنكم تضعون الكذب مكان الشكر، وهذا على نحو ماجاء فى قوله تعالى: « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » أى لم يكونوا يصلون، لكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة.

قال القرطبى: وفى هذا بيان لأن مايصيب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بالشكر إن كان نعمة وبالصبر إن كان مكروها، تعبدا له وتذللا اه.

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

شرح المفردات

لولا : حرف يفيد الحث على حصول مابعده على سبيل الاستحسان أوالوجوب ، والحلقوم : مجرى الطعام ، ونحن أقرب إليه منكم : أى علما وقدرة ، مدينين : أى محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين من قولهم دان السلطان الرعية إذا استذلهم واستعبدهم ، والروح : الاستراحة ، ريحان : أى رزق ، من المكذبين الضالين . هم أصحاب الشمال ، فنزل : أى فجزاؤه نزل ، وتصلية جحيم : أى إدخال فى النار ، حق اليقين : أى حق الخبر اليقين الذى لاشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جحودهم بآيات الله وتكذيبهم رسوله وكتابه ، وقولهم فيه : إنه سحر وافتراء ، واعتقادهم أن رزقهم من الأنواء — أردف ذلك بتوبيخهم على مايعتقدون ، فإنه إذا كان لابد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، لأن الخالق إما الله وإما أنتم ، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ،

وإذا فلماذا لاترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجعوها ، الحق أنكم لاتعقلون الدليل والبرهان ، بل لاتفهمون إلا المحسوسات ، فلمّا لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة ، فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدم وجوده .

ثم بين حال المتوفى ، ومن أيّ الأزواج الثلاثة هو ، فإن كان من السابقين فله روح واطمئنان نفس ، علما منه بما سيلقاه من الجزاء ، ورزق طيب فى جنات النعيم فيرى فيها ماتلذ الأنفس ، وتقرّ به الأعين ، وإن كان من أصحاب اليمين فتسلم عليه الملائكة ، وتعطيه أمانا من ربه ، وإن كان من أصحاب الشمال فضيافته ماء حميم وعذاب فى النار أبدا .

ثم بين أن الخبر الذى أُخْبر به هو الحق اليقين ، وعليك أن تنزه ربك العظيم عن كل ما لايليق به .

الإيضاح

(فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون) أى فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجساد موتاكم حلاقيمهم وأنتم ومن حضركم من أهليكم تنظرون إليهم ، ورسلنا الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليهم منكم ولكن لاتبصرون — وجواب لولا هو ماسيأتى بعد وهو (ترجعونها) .

وخلاصة المعنى — إذا لم يكن لكم خالق وأنتم الخالقون ، فهلا ترجعون النفوس إلى أجسادها حين خروجها من حلاقيمها ؟

ثم كرر التحضيض مرة أخرى فقال :

(فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) أى فهلا ترجعون هذه النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها من الجسد ، إن كنتم غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون .

وبعد أن ذكر حال المحتضرين أردفها بذكر حالهم بعد الوفاة وقسمها أزواجا ثلاثة فقال :

(١) (فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم) أى فإن كان المتوفى من الذين قرّبهم ربهم من جواره فى جناته ، لفعله ما أمر به ، وتركه مانهى عنه ، فراحة واطمئنان لنفسه ، ورزق واسع من عنده ، وتبشره الملائكة بجنات النعيم ، وقد جاء فى حديث البَرَاء بن عازب : « إن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، فاخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » .

(٢) (وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين) أى فإن كان المتوفى من أصحاب اليمين فتبشره الملائكة وتقول له : لا بأس عليك . أنت إلى سلامة . أنت من أصحاب اليمين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

(٣) (وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) أى وإن كان المتوفى من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، فيقدم ضيافة له ماء حميم يصهر به مافى بطنه والجلود ، ويُدخل فى النار التى تغمره من جميع جهاته .

(إن هذا لهو حق اليقين) أى إن هذا الذى ذكر فى هذه السورة من أمر البعث الذى كذبوا به ، ومن قيام الأدلة عليه ، ومن حال المقربين وأصحاب اليمين ، وحال المكذبين الضالين — لهو حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه ، لتظاهر الأدلة القاطعة عليه ، كأنه مشاهد رأى العين .

(فسبح باسم ربك العظيم) أى فبعد أن استبان لك الحق ، وظهر لك اليقين ، فنزه ربك عما لا يليق به ، مما ينسبه الكفار إليه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : اجعلوها فى سجودكم » .

والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

خلاصة موضوعات هذه السورة

(١) اضطراب الأرض وتفتت الجبال حين قيام الساعة .

(٢) إن الناس عند الحساب أزواج ثلاثة وذكر مآل كل زوج منها .

(٣) اجتماع الأولين والآخرين فى هذا اليوم .

(٤) إقامة الأدلة على وجود الخالق .

(٥) إقامة البرهانات على البعث والنشور والحساب .

(٦) إثبات أن هذه الأخبار حق لا شك فيها .

(٧) تبكيت المكذبين على إنكار الخالق .

ســــورة الحديد

هذه السورة مدنية ، وعدة آيها تسع وعشرون ، نزلت بعد الزلزلة .
ووجه مناسبتها لما قبلها .

(١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ماقبلها من الأمر بالتسبيح فكأنه قيل: سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له مافى السموات والأرض .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلّهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) .

شرح المفردات

جاء فى الكتاب الكريم سبَّح ويسبِّح وسبِّحْ ويقال : سبحته وسبحت له كما يقال نصحته ونصحت له ، وتسبيح العقلاء أن يقولوا مايدل على تنزيهه من كل

نقص ، وإبعاده عما لا يليق به من صفات المحدثات ، كإثبات شريك له أو ندّ ، وكون الملائكة بنات له ، وكون عيسى ابنا له ، وتسبيح غيرهم دلالة وجوده على عظم خالقه ، وانقياده له فى كل آن .

وما مثل هذا إلا مثل إشارتك لصاحبك على وضع خاص يفهم منها تأنَّ واصبِرْ، وإشارتك له على هيئة أخرى يفهم منها أنك لا تفعل هذا .

فهذه الدلالة فى الحالين أفهمت صاحبك إفهاما كافهام الكلام ، بل أقوى وأبلغ أثرا ، وكم للإنسان فى حركاته من معانى يفهمها الآخرون بطريق لا لبس فيها .

وإذا كان هذا حال الإنسان المحدود العلم والإدراك ، فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة ، وقد فهمنا منها ما لا نفهم بالقول ، فلو أنك وقفت فى الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والأشجار مترنحات ، وأنواع الكلأ متحركات ، والأوراق تغنى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، تلمع من بينها الكواكب، فتضىء من بينها السباسب لتجلت لك العبر ، وقرأت علوم المبتدإ والخبر ، ولعلمت أنها تحت قبضة ذى الملك والملكوت ، الحى الذى لا يموت ، الفرد الصمد ، المنزّه عن الصاحبة والولد ، سُبُّوح قُدُّوس ، رب الملائكة والروح ، العزيز أى الذى لا ينازعه فى ملكه شىء ، الحكيم : أى الذى يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب ، يحيى ويميت : أى يحيى النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ، ويميت الأحياء ، وهو على كل من الإحياء والإماتة قدير ، وهو الأول : أى السابق على سائر الموجودات ، والآخر : أى الباقى بعد فنائها ، والظاهر والباطن : أى وهو الذى ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت ، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وناطق بذاته ، ومشرق بجماله وكماله ، وهو ظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته ، وباطن بعلمه بما خفى منها فلا تخفى عليه خافية ، والمراد بستة الأيام ستة الأطوار،

كما تقدم ذلك فى سورة الأعراف ، والاستواء على العرش تقدم تفسيره فى سورتى يونس وهود ، يلج فى الأرض : أى يدخل فيها من كنوز ومعادن و بذور ، وما يخرج منها : كالزرع والمعادن لمنفعة الناس ، وما ينزل من السماء : كالمطر والملائكة ونحوهما ، وما يعرج فيها : كالأبخرة المتصاعدة والأعمال والدعوات ، يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل تقدم تفسير هذا فيما تقدم ، ذات الصدور : أى مكنونات النفوس فهو العليم بالسرائر .

الإيضاح

(سبح لله مافى السموات والأرض) أى إن مادونه من خلقه ينزهه عن كل نقص تعظيما له و إقرارا بربوبيته ، و إذعانا لطاعته كما قال : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَـكِنْ لَاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا » .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو القادر الغالب الذى لاينازعه شىء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه ، وتصريفها فيما شاء وأحب .

(له ملك السموات والأرض) أى له التصرف والسلطان فيهما ، وهو نافذ الأمر ، ماضى الحكم ، فلا شىء فيهن يمتنع منه .

(يحيى و يميت) أى يحيى مايشاء من الخلق كيف شاء ، فيحدث من النطفة الميتة حيوانا ينفخ فيه الروح ، و يميت مايشاء من الأحياء بعد بلوغ أجله .

(وهو على كل شىء قدير) أى وهو ذو قدرة لايتعذر عليه شىء أراده من إحياء و إماتة ، و إعزاز و إذلال إلى نحو أولئك .

(هو الأول والآخر) أى هو الأول قبل كل شىء بغير حدّ كما جاء فى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى »

وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية كما قال: « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ » .

(والظاهر والباطن) أي وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه ، وهو الباطن بذاته فلا تحوم حوله الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وباطن بعلمه بما بطن وخفي ، فلا شيء إليه أقرب من شيء كما قال : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » .

(وهو بكل شيء عليم) أي وهو ذو علم تام بكل شيء ، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

(هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) أي هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن في ستة أطوار مختلفات ثم استوى على عرشه فارتفع عليه .

(يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها) أي يعلم مايدخل في الأرض من خلقه، فلا تخفى عليه خافية منه ، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمار ومعادن كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَافِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ، وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(وما ينزل من السماء) من شيء كالمطر والملائكة .

(وما يعرج فيها) أي وما يصعد إليها من الأرض كالأبخرة المتصاعدة والأعمال الصالحة كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

(وهو معكم أينما كنتم) أي وهو مطلع على أعمالكم أينما كنتم ، ويعلم متقلبكم ومثواكم .

(والله بما تعملون بصير) أي وهو رقيب عليكم ، سميع لكلامكم ، يعلم سركم ونجواكم كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل لما سأله عن الإحسان « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقال عمر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « زوّدنى حكمة أعيش بها ، فقال : استحِ الله كما تستحى رجلا من صالحى عشيرتك لا يفارقك » .

وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفُل ساعة ولا أنَّ ما تُخْفِى عليه يغيب

(له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور) أى هو المالك لما فيهما ، والمدبر لأمرها ، والنافذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال « وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى » وقال : « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يقلب الليل والنهار ويقدّرهما بحكمته كما يشاء ؛ فتارة يطول الليلُ ويقصر النهار والعكس بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وحيناً يجعل الفصل شتاء أو ربيعا أو قيظا أو خريفا ، وكل ذلك بتدبيره وفائدة خلقه .

(وهو عليم بذات الصدور) أى وهو عليم بالسرائر وإن دقت وخفيت ، فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر .

وفى ذلك حث لنا على النظر والتأمل ثم الشكر على ماأولى وأنعم .

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١).

شرح المفردات

مستخلفين فيه : أى جعلكم سبحانه خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ، أخذ الميثاق : نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والتمكين من النظر فيها ، والآيات البينات : هى القرآن ، والفتح : هو فتح مكة ، والحسنى : أى المثوبة الحسنى، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، يقرض الله : أى ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنواعا من الأدلة تثبت وحدانيته وعلمه وقدرته ببيان أن كل ما فى السموات والأرض فهو فى قبضته يصرّفه كما يشاء على ماتقتضيه حكمته ، ثم ذكر أنواعا من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأومأ إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية ، فأمر بدوام الإيمان الكامل الذى له آثاره العملية من إخبات النفس لله و إخلاص العمل له ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن

ثم طلب إنفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردَّة فهو ملك الله وأنتم خلفاؤه فى تثميره فى الوجوه التى فيها خير لكم ولأمتكم ولدينكم ، ولكم على ذلك الأجر الجزيل الذى يضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول ، وقد أخذ عليهم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم تخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، والله رءوف بكم إذ أنقذكم من هاوية الشرك وهداكم إلى طاعته ، ثم ذكر فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقلّ المعين ، فهؤلاء لا يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى والأجر الكريم عند ربهم ؛ ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضا له ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجمل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

الإيضاح

(آمنوا بالله ورسوله) أى أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسوله فيما جاءكم به عن ربكم ــ تنالوا الفوز برضوانه ، وتدخلوا فراديس جناته ، وتسعدوا بما لم يدر لكم بخلد ، ولم يخطر لكم ببال .

(وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه) أى وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ولله درّ لبيد إذ يقول :

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ ... ولا بد يوماً أَنْ تُرَدَّ الودائعُ

وفى هذا ترغيب أيما ترغيب فى الإنفاق ، لأن من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه ــ علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره ، وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال شُعْبة : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرِّف بن عبد الله عن أبيه قال :

« انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» رواه مسلم.

ثم حث على ما تقدم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله فقال :

(فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) أى والذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خوّلهم الله عمن قبلهم - فى سبيل الله ، لهم الثواب العظيم عند ربهم ، وهناك يرون من الكرامة والمثوبة ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم وبخهم على ترك الإيمان الذى أمروا به ، وأبان أنه ليس لهم فى ذلك من عذر فقال :

(وما لكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟) أى وأىّ شىء يمنعكم من الإيمان والرسولُ بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : «أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا الملائكة ، قال : وما لهم لايؤمنون وهم عند ربهم ، قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لايؤمنون والوحى ينزل عليهم ، قالوا فنحن : قال : وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها» .

(وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) أى وقد أخذ الله عليكم الميثاق بما نصب لكم من الأدلة على وحدانيته فى الكون ، أرضه وسمائه ، برّه وبحره ، وفى الأنفس بما تشاهدون فيها من بديع صنعها ، وعظيم خلقها ، إن كنتم تؤمنون بالدليل العقلى أو النقلى .

وصفوة القول : إن الأدلة تظاهرت على وجوب الإيمان بالله ورسوله ، فقد نصب

فى الكون ما يرشد إلى وجوده ، وأرسل الرسل يدعون إلى ذلك ، وأقاموا البراهين على صدق ما يقولون ، فما عذركم ، و إلام تستندون فى رد هذا ؟ .

الآن قد تبين الرشد من الغى ، وأفصح الصبح لذى عينين ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فهل من مدّكر ؟

ثم قطع عليهم الحجة وأزال معذرتهم فقال :

(هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، و إن الله بكم لرءوف رحيم) أى وهو الذى ينزل على رسوله دلائل واضحات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ولرأفته بكم هداكم إليه على أتم وجه ، ومكن لكم من النظر فى الأنفس والآفاق .

و بعد أن و بخهم على ترك الإيمان ، و بخهم على ترك الإنفاق ، وأبان أنه لامعذرة لهم فى ذلك فقال :

(وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات الأرض) أى وما لكم أيها الناس لاتنفقون مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثا .

والخلاصة — أنفقوا أموالكم فى سبيل الله ، ليكون ذلك ذخرا لكم عند ربكم قبل أن تموتوا فلا تقدروا على ذلك ، إذ تصير الأموال ميراثا لمن له السموات والأرض .

ثم بين تفاوت درجات المنفقين على حسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق فقال :

(لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) أى لايستوى من آمن وهاجر وأنفق ماله فى سبيل الله قبل فتح مكة ، ومن أنفق من بعد الفتح — ذاك أنه قبل فتحها كان الناس فى جهد وضيق ولم يؤمن إذ ذاك إلا الصديقون ، أما بعد الفتح فقد انتشر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ومن ثم قال :

(أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

(وكلا وعد الله الحسنى) أى وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ماعملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى مقدار الجزاء كما قال فى آية أخرى « لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً » .

أخرج أحمد عن أنس قال : « كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أُحُد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا أصحابى ، فوالذى نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه » .

ثم وعد وأوعد فقال :

(والله بما تعملون خبير) أى والله عليم بظواهر أحوالكم وبواطنها ، فيجازيكم بذلك ، ولخبرته تعالى بكم فضل أعمال من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق بعده وقاتل ، وما ذاك إلا لعلمه بإخلاص الأول فى إنفاقه فى حال الجهد والضيق .

ولأبى بكر الصديق الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها ، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يجزيه بها .

ثم ندب إلى الإنفاق فى سبيله ، ووبخ على تركه فقال :

(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) أى من هذا

الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسبا أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

وعن ابن مسعود قال : «لما نزلت هذه الآية : «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ » قال أبو الدَّحْدَاحِ الأنصارى يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : إنى أقرضت ربى حائطى (بستانى) وكان له حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح ، قالت لبيك ، قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل ، قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها ، فقال رسول الله : كم من عذق رَدَاح فى الجنة لأبى الدحداح » وهذا الأسلوب يستعمل فى الأمر العزيز النادر فيقال : من ذا الذى يفعل كذا ، إذا كان أمرا عظيما ، وعلى هذا جاء قوله : « مَنْ ذَا الذِي يشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ » .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ

وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) .

شرح المفردات

المراد بالنور هنا: مايوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من علم وعمل ، بشراكم : أى ماتبشرون به ، انظرونا : أى انتظرونا ، وأصل الاقتباس طلب القبَس : أى الجذوة من النار ، والسور : الحاجز ، من قِبَله : أى جهته ، بلى : أى كنتم معنا ، فتنتم أنفسكم : أى أهلكتموها بالمعاصى والشهوات ، وتربصتم : أى انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان، وارتبتم : أى شككتم فى أمر البعث ، والأمانى : الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام واحدها أمنية ، والغرور (بالفتح) الشيطان ، والفدية والفداء : مايبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، مأواكم : أى منزلكم الذى تأوون إليه ، مولاكم : أى أولى بكم ، والمصير : المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بالإيمان والإنفاق فى سبيل الله ، وحث على كل منهما بوجود موجباته؛ فحث على الإيمان بوجود الأسباب التى تساعد عليه وهى وجود الرسول بين أظهرهم، وكتابه الذى يتلى بين أيديهم ، وحث على الإنفاق فأبان أن المال إنما هو مال الله وهو عارية بين أيديهم ثم يردّ إليه ، وأنهم ينالون على إنفاقه الأجر العظيم فى جنات النعيم ، ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثر النصير والمعين ــ ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، وأنهم يبشرون بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ثم أردفه بذكر حال المنافقين إذ ذاك ، وأنهم يطلبون من المؤمنين

شيئا من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل ، فيتهكم بهم المؤمنون ويخيبون آمالهم ويقولون لهم : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف ، فلا نور إلا منها ، ثم أرشد إلى أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه ، وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى ، وانتظروا أن تدور على المؤمنين الدوائر ، فينطفىء نور الإيمان ، وشكوا فى أمر البعث وغرهم الشيطان فأوقعهم فى مهاوى الردى ، ثم أعقبه ببيان أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا ، فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

الإيضاح

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) أى لهم الأجر الكريم حين ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم ما يكون السبب فى نجاتهم وهدايتهم إلى سبيل الجنة من العلوم التى كملوا بها أنفسهم فى الدنيا كالاعتقاد بالتوحيد وخلع الأنداد والأوثان ، والأعمال الصالحة التى زكوا بها أنفسهم ، وبها أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه مخلصين له الدين ، وبأيمانهم تكون كتبهم كما جاء فى آية أخرى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً » .

(بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى وتقول لهم الملائكة : أبشروا بجنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما قدمتم من صالح الأعمال ، وجاهدتم به أنفسكم فى ترك الشرك والآثام ، وكنتم تذكرون الله بالليل والناس نيام ، فطوبى لكم وهنيئا بما عملتم .

ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى وذلك الخلود فى الجنات التى سمعتم أوصافها هو النجح العظيم الذى كانوا يطلبونه بعد النجاة من عقاب الله .

وبعد أن ذكر حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين فقال :

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) أى فى هذا اليوم يقول المنافقون والمنافقات : أيها الذين نجوتم بإيمانكم بربكم وفزتم برضوانه حتى دخلتم فسيح جناته ، انتظروا نلحق بكم ونقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس ، والعذاب الأليم الذى نحن مقبلون عليه ، فيجابون بما يخيب آمالهم ويلحق بهم الحسرة والندامة كما قال :

(قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أى ارجعوا من حيث أتيتم ، واطلبوا لأنفسكم هنالك نورا ، فإنه لاسبيل إلى الاقتباس من نورنا الذى كان بما قدمنا لأنفسنا وادخرنا لها من عمل صالح ، فَأَيْهَاتَ أَيْهَاتَ أن تنالوا نورا إذ لاينفع المرء حينئذ إلا عمله ، ولله در القائل :

صاح هـل رَيْت أو سمعت براعٍ ردَّ فى الضَّرْع ما قرى فى الحلاب

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والاستهزاء بطلبهم ، كما استهزءوا بالمؤمنين فى الدنيا حين قالوا آمنا ، وما هم بمؤمنين ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى حين يقال لهم : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » .

ثم ذكر ما يكون بعد هذه المقالة فقال :

(فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) أى فضرب بين الفريقين حاجز جانبه الذى يلى مكان المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة ، وجانبه الذى يلى المنافقين وهو النار فيه العذاب .

ثم أرشد إلى ما يكون من المنافقين حينئذ فقال :

(ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) أى ينادى المنافقون المؤمنين :

أمَا كنّا معكم فى الدار الدنيا نصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم : بلى كنتم معنا ، ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصى ، وأخرتم التوبة ، وشككتم فى أمر البعث بعد الموت ، وغرتكم الأمانى ، فقلتم سيُغْفَرُ لنا ، وما زلتم كذلك حتى حضركم الموت، وغركم الشيطان فقال لكم : إن الله عفوّ كريم لايعذبكم .

والخلاصة — إنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم ، وكنتم فى حيرة من أمركم ، فلا تذكرون الله إلا قليلا . ثم أيأسوهم من عاقبة أمرهم ، وأنهم هالكون لامحالة . ولا سبيل إلى الخلاص من النار فقال :

(فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) أى فاليوم لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه ، فمصيركم إلى النار وإليها منقلبكم ومثواكم ، وهى أولى بكم من كل منزل آخر ، لكفركم وارتيابكم ، وساءت مصيرا ومآلا .

والخلاصة — إنه لامناص من النار فلا فداء ولا فكاك منها .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) .

شرح المفردات

ألم يأن : ألم يجئ وقت ذلك من قولهم أَنَى الأمر أنْياً وأناء وإناء إذا جاء أناه أى وقته ، والخشوع : الخشية والخوف ، وذكر الله مواعظه ، والحق : هو القرآن ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والأمد : الزمان ، وطال عليهم الأمد

أى طال عليهم العهد بينهم وبين أنبيائهم ، فقست قلوبهم : أى صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فاسقون : أى خارجون عن حدود دينهم رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواه ، والأرض الميتة : هى التى لاتنبت شيئا ، والآيات : هى البينات والحجج ، تعقلون : أى تتدبرون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة ، وأن الأولين لهم نور يهديهم إلى طريق الجنة ، وأن الآخرين يطلبون منهم أن يأتوهم قبسا من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة ، فيردونهم خائبين ، ويقولون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا - أردف هذا بعتاب قوم من المؤمنين فترت هممهم عن القيام بما ندبوا له من الخشوع ، ورقة القلوب بسماع المواعظ وسماع القرآن ، ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال العهد بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيه ، ثم أبان لهم بضرب المثل أن القلوب القاسية تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث والمطر .

روى عن ابن مسعود أنه قال : « لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا فى جهد جهيد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت الآية » .

وعن ابن عباس أنه قال : « إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية» .

الإيضاح

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) أى أما آن للمؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ ، فتفهمه وتنقاد له ، وتطيع أوامره ، وتنتهى عن نواهيه ؛

وإذا كان المؤمنون قد أصابهم الوهن ولم يمض على الإسلام أكثر من ثلاث عشرة سنة كما قال ابن عباس ، فما بالنا اليوم وقد مضى عليهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا، فتعبيرها عن حالهم الآن بالأولى ، فالوهن الآن أضعاف مضاعفة عما كان فى تلك الحقبة ، ومن ثم أفرط الفَرَنْجَة فى إذلالهم واستعبادهم ، وصاروا غرباء فى ديارهم ، والأمر والنهى فيها لسواهم :

ويُقضى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يستأذنون وهم شهود

ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب قبلهم فقال :

(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى لا يتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى حين طال الأمد بينهم وبين أنبيائهم ، فقست قلوبهم ولم تقبل موعظة ولم يؤثر فيها وعد ولا وعيد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا فى دين الله دون دليل ولا برهان ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وكثير منهم خرج عن أمر الدين فى الأعمال والأقوال كما قال « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » . أى فسدت قلوبهم فقست وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، فتركوا الأعمال التى أمروا بها ، واجترحوا ما نهوا عنه .

والخلاصة — إن الله نهى المؤمنين أن يكونوا حين سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم ، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم .

ثم ضرب المثل لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن فى القلوب فقال :

(اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى إن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى النفوس الحيارى بعد ضلتها ،

ويفرّج الكروب بعد شدتها ، ببراهين القرآن ودلائله ، وبالمواعظ والنصائح التى تلين الصخر الأصم ، ويحييها بعد موتها كما يحيي الأرض الهامدة المجدبة بالغيث الوابل الهتّان ، وقد ضرب لكم الأمثال كى تتدبروا وتكمل عقولكم ؛ فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، وهو الفعال لما يشاء ، الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير المتعال .

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

شرح المفردات

المصدقين : أى المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوى الحاجة ، والقرض الحسن : هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ، يضاعف لهم : أى يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ، والصديق : من كثر منه الصدق وصار سجية ، والشهداء من قتلوا فى سبيل الله ، واحدهم شهيد .

المعنى الجملى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة — ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

الإيضاح

(إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم) أى إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء ولا شكورا - يضاعف لهم ربهم ثواب إنفاقهم فيقابل الحسنة الواحدة بعشر أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف، ولهم ثواب جزيل ومرجع صالح.

(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) أى والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله، وآمنوا بما جاءهم به من عند ربهم، أولئك هم فى حكم الله بمنزلة الصديقين.

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) أى والذين استشهدوا فى سبيل الله لهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم فى ذلك يتفاوتون على حسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال.

والخلاصة - إن العاملين أقسام: فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى: « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ».

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك بذكر حال الأشقياء فقال:

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبدا بحيث لا يفارقونها.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ

يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) .

شرح المفردات

اللعب : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان ، واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه و يهمه ، وزينة : أى كالملابس الفاخرة ، وتفاخر : أى بالأنساب والعظام البالية ، وتكاثر فى الأموال والأولاد : أى مباهاة بكثرة العُدد والعَدد ، والغيث : المطر ، والكفار الزراع ، يهيج : أى يبتدئ فى اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضرا ، حطاما : أى هشيما متكسرا من يبسه ، والغرور : الخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم و بأيمانهم ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات ـ أردف ذلك بوصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، وضرب لذلك مثل الأرض ينزل عليها المطر فتنبت الزرع البهيج الناضر الذى يعجب الزراع لنمائه وجودة غلته ، و بينا هو على تلك الحال ، إذا به يصفرّ بعد النضرة والخضرة و يجف ثم يتكسر و يتفتت ، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة ، فمن أجاد زرعه حصد وربح ، ومن توان وكسل ندم ولات ساعة مندم .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول فى جنات عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلا منه ورحمة وهو المنعم عظيم الفضل .

الإيضاح

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد) أى اعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا ماهو إلا لعب ولهو تتفكهون به ، وزينة تتزينون بها ، وبها يفخر بعضكم على بعض ، وتتباهون فيها بكثرة الأموال والأولاد .

ثم ضرب مثلا يبين أنها زهرة فانية ، ونعمة زائلة فقال :

(كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما) أى ما مثل هذه الحياة فى سرعة فنائها وانقضائها على عجل إلا مثل أرض أصابها مطر وابل ، فأنبتت من النبات ما أعجب الزراع وجعلهم فى غبطة وحبور ، وبهجة وسرور ، وبينا هو على تلك الحال إذا هو يصوح ويأخذ فى الجفاف واليبس ، ثم يكون هشيما تذروه الرياح .

ونحو الآية قوله : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ » .

ثم ذكر عاقبة المتهكمين فيها الطالبين لتحصيل لذاتها ، المتهالكين فى جمع حطامها ، والمعرضين عنها الطالبين لرضوان ربهم فقال :

(وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) أى وفى الآخرة إما عذاب شديد دائم لمن انهمك فى لذاتها ، وأعرض عن صالح الأعمال ، ودسّى نفسه بالشرك والآثام ، وإما مغفرة من الله ورضوان من لدنه لمن زكى نفسه وأخبت إلى ربه وأناب إليه :

قدّم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غِرَّةٍ زَلجَا

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فإنه زائل خادع من ركن إليه واغترّ به وأعجبه حتى اعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها .

ولما أبان أن الآخرة قريبة وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم — حث على المبادرة إلى فعل الخيرات فقال :

(سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى سابقوا أقرانكم فى مضمار الأعمال الصالحة ، وأدّوا ما كلفتم به من أوامر الشريعة واتركوا نواهيها — يدخلكم ربكم بما قدمتم لأنفسكم ، جنة سعتها كسعة السموات والأرض .

ثم بين المستحقين لها فقال :

(أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) أى هيئت للذين اعترفوا بوحدانية الله وصدقوا رسله .

ثم بين أن هذا فضل منه ورحمة فقال :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى هذا الذى أعده الله لهم هو من فضله ورحمته ومنته عليهم .

وفى الصحيح « أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهلُ الدُّثور (الأموال) بالأجور والدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال وما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال : أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، قال : فرجعوا فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع العطاء عظيم الفضل ، فيعطى من يشاء ما شاء كرمًا منه وفضلا ، ويبسط له الرزق فى الدنيا ، ويهب لهم النعم ، ويعرفهم مواضع الشكر ، ثم يجزيهم فى الآخرة ما أعده لهم مما وصفه قبل .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ (٢٤) .

شرح المفردات

فى الأرض : أى كالجدب والفاقة واحتلال الأجانب الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين ، فى أنفسكم : أى كالمرض والفاقة ، فى كتاب : هو اللوح المحفوظ ، نبرأها : أى نخلقها ، وتأسوا : أى تحزنوا ، ما فاتكم : أى من نعيم الدنيا ، ما آتاكم :

أى ما أعطاكم ، والمختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، والفخور : هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن متاع هذه الدنيا زائل فانٍ ، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم - أردف ذلك بتهوين المصايب على المؤمنين ، فذلك يكون مصدر سعادة نفوسهم واطمئنانها ، وبدونه يكون شقاؤها وكآبتها ، وآية ذلك أن لا تحزن على فائت ، ولا تفرح بما يصل إليها من لذاتها الفانية .

ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ، ويأمرون الناس بذلك ، ويعرضون عن الإنفاق فلا يجنُنّ إلا على أنفسهم ، والله غنى عنهم ، وهو المحمود على نعمه التى لا تدخل تحت حد .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) أى ما أصابكم أيها الناس من مصايب فى آفاق الأرض كقحط وجدب وفساد زرع ، أو فى أنفسكم من أوصاب وأسقام - إلا فى أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن علمه بالأشياء قبل وجودها ، وكتابته لها طبق ما توجد فى حينها - يسير عليه ، لأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون .

أخرج الحاكم وصححه عن أبى حسان: أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله عنها فقالا إن أبا هريرة يحدّث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ، فقالت : والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، كان يقول« كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة فى المرأة

والدابة والدار ثم قرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » .

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) أى أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تحزنوا على فائت ، ولا تفرحوا بآت .

والخلاصة — إن كل شىء قدّر فى الكتاب ، فكيف نفرح أو نحزن ؟ .

قال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا .

وقال حكيم : الصبر مُخْرج من الشقاء ، فلا سعادة إلا بالصبر ، ووصول النفس إلى كمالها الخلق ، بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها ، فيصيبها مرة ويخطئها أخرى وهى مطمئنة ، لا يدخلها زهو ولا إعجاب بما نالت ، ولا حزن على ما فاتها .

وعلى الجملة فالحزن المذموم هو مايخرج بصاحبه إلى ما يذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، والفرح المنهى عنه هو الذى يطغى على صاحبه ويلهيه عن الشكر .

(والله لايحب كل مختال فخور) أى إن المختال الفخور يبغضه الله ولايرضى عنه .

ثم بين أوصاف المختالين الفخورين فقال :

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) أى إن المختالين بما أوتوا من المال يضنون به ، لأنهم يرون عزتهم فى وجوده ، ويعدهم الشيطان بالفقر إذا هم أنفقوه ، وقد يبلغ الأمر بهم أن يأمروا سواهم بالبخل ويبدوا لهم النصائح التى تجعلهم يضنون به مدعين أن ذلك إشفاق عليهم ونصح لهم .

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن يعرض عن الإنفاق فلا يضرنّ بذلك إلا نفسه ، فالله غنى عن ماله وعن نفقته ، محمود إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه ، ولا يضيره الإعراض عن شكره كما قال موسى عليه السلام لقومه : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّٰهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ » .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللّٰهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

شرح المفردات

البينات : المعجزات والحجج ، والكتاب : أى كتب التشريع ، والميزان : العدل ، والقسط : الحق ، وأنزلنا الحديد : أى خلقناه ، والبأس : القوة ، وليعلم الله أى ليعلمه علم مشاهدة ووجود فى الخارج .

الإيضاح

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أى ولقد أرسلنا الأنبياء إلى أممهم ومعهم البراهين الدالة على صدقهم ، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم ، ومعهم كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ، وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

ولما كان الناس فريقين فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن ، وكان العدل والقانون لابد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وأعوانه والجند ، وهؤلاء لابد لهم من عُدّة يحمون بها القانون والعدل فى داخل البلاد وفى خارجها أعقب هذا بقوله :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) أى وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم وتحمى المظلوم ، وفيه منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أى وإنما فعل ذلك ليرى كم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكُراع لمجاهدة أعدائه، وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم.

روى أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

(إن الله قوى عزيز) أى إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، والإنجيل : الكتاب الذى أنزل على عيسى وفيه شريعته ، والمراد من الرأفة : دفع الشر ، ومن الرحمة : جلب الخير، وبذا يكون

بينهم مودة ، والرهبانية: ترهبهم فى الجبال فارّين بدينهم من الفتنة ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، محتملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الغيران والكهوف ، وقوله ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ابتغاء رضوان الله : أى طلبا لرضاه ومحبته ، فما رعوها : أى ما حافظوا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله — أتبع ذلك ببيان ما أنعم به على أنبيائه من النعم الجسام ، فذكر أنه شرّف نوحا و إبراهيم عليهما السلام بالرسالة ، ثم جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فما جاء أحد بعدهما بالنبوة إلا كان من سلائلهما .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا و إبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) أى ولقد بعثنا نوحا إلى طائفة من خلقنا ، ثم بعثنا إبراهيم من بعده لقوم آخرين ، ولم نرسل بعدهما رسلا بشرائع إلا من ذريتهما .

ثم بين أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال :

(فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) أى فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضُلاّل خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان ، مدسّون أنفسهم باجتراح الآثام .

وفى الآية إيماء إلى أنهم خرجوا عن الطريق المستقيم بعد أن تمكنوا من الوصول إليه، و بعد أن عرفوه حق المعرفة ، وهذا أبلغ فى الذم وأشد فى الاستهجان لعملهم .

(ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أى ثم بعثنا بعدهم رسولا بعد رسول على توالى العصور والأيام.

ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة شريعته فى عصر التنزيل ولوجود أتباعه فى جزيرة العرب وغيرها فقال :

(وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل) أى ثم أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى عليه السلام ، وأعطيناه الإنجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء ما فيه مكملا لما فى التوراة ومخففا بعض أحكامها التى شرعت تغليظا على بنى إسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق كما جاء فى قوله : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » .

ثم بين صفات أتباع عيسى فقال :

(وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) أى إن أتباعه الذين ساروا على نهجه وشريعته اتصفوا بما يأتى :

(١) الرأفة بين بعضهم و بعض ، فيدفعون الشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، و يصلحون ما فسد من أمورهم .

(٢) الرحمة فيجلب بعضهم الخير لبعض كما قال فى حق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٣) الرهبانية المبتدعة ، فقد انقطعوا عن الناس فى الفلوات والصوامع معتزلين الخلق وحرّموا على أنفسهم النساء ولبسوا الملابس الخشنة ، تبتـــلا إلى الله و إخباتا إليه .

(ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) أى ما فرضنا عليهم هذه الرهبانية ، ولـكنهم استحدثوها طلبا لمرضاة الله والزلفى إليه .

ثم ذكر أنهم ما حافظوا عليها كما قال :

(فما رعوها حق رعايتها) أى فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة ، وما قاموا

بما التزموه حق القيام ، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى بن مريم فضموا إليه التثليث ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا وبدلوا .

وفى هذا ذم لهم من وجهين :

(١) إنهم ابتدعوا فى دين الله مالم يأمر به .

(٢) إنهم لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ربهم ، وقد كان ذلك كالنذر الذى يجب رعايته ، والعهد الذى يجب الوفاء به .

روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: «قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يابن مسعود ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم ، فرقة من الثلاث وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه فقتلتهم الملوك ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانَىْ قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليـه ، فقتلتهم الملوك بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام بين ظهرانَىْ قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى صلوات الله عليه ، فلحقوا بالبرارى والجبال فترهبوا فيها فهو قول الله عز وجل « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » الآية ، فمن آمن بى واتبعنى وصدقنى فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون » .

(فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون) أى فآتينا الذين آمنوا منهم إيمانا صحيحا طبعت آثاره فى أعمالهم ، فزكوا أنفسهم، وأخبتوا إلى ربهم، وأدوا فرائضه ــ أجورهم التى استحقوها كفاء ما عملوا ، وكثير منهم فسقوا عن أمر الله ، واجترحوا الشرور والآثام ، وظهر فسادهم فى البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكبكبوا فى النار وباءوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

شرح المفردات

قال المؤرّج السدوسى : الكفل : النصيب بلغة هذيل ، وقال غيره بل بلغة الحبشة ، وقال المفضل الضبى : أصل الكفل كساء يديره الراكب حول سنام البعير ليتمكن من القعود عليه ، لئلا يعلم : أى لكى لا يعلم.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من آمنوا من أهل الكتاب إيمانا صحيحا لهم أجرهم عند ربهم ـ ذكر هنا أن من آمنوا منهم بعيسى أولا وبمحمد صلى الله عليه وسلم ثانيا يؤتيهم أجرهم مرتين ، لإيمانهم بنبيهم ، ثم بمحمد من بعده ، ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ورحمة منه لايخص به قوما دون قوم ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، لا كما يقول اليهود : إن الوحى والرسالة فينا لاتعدونا إلى سوانا ، فنحن شعب الله المختار ، ونحن أبناء الله وأحباؤه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به و يغفر لكم والله غفور رحيم) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله من

أهل الكتابين التوراة والإنجيل - خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم - يعطكم ضعفين من الأجر ، لإيمانكم بعيسى والأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ثم بإيمانكم بمحمد بعد أن بُعث نبيا ، ويجعل لكم هدى تستبصرون به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم ما أسلفتم من الذنوب وما فرطتم فى جنب الله ، والله واسع المغفرة لمن يشاء ، رحيم بعباده يقبل توبتهم - متى أنابوا إليه ، وخشعت له قلوبهم .

والخلاصة — إنه تعالى وعد المؤمنين برسوله بعد إيمانهم بالأنبياء قبله بأمور ثلاثة :

(١) أنه يضاعف لهم الأجر والثواب .

(٢) أن يجعل لهم نورا بين أيديهم وعن شمائلهم يوم القيامة يهديهم إلى الصراط السوى ويوصلهم إلى الجنة .

(٣) أن يغفر لهم ما اجترحوا من الذنوب والآثام .

روى الشعبى عن أبى بُرْدة عن أبيه أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدّب أمَتَه فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » رواه البخارى ومسلم .

ثم رد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم فقال :

(لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لاينالون شيئا من فضل الله من الأجرين ولا يتمكنون من نيله مالم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة ذلك — إن إيمانهم بنبيهم لاينفعهم شيئا مالم يؤمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن أبى حاتم قال لما نزلت « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر ، فاشتد ذلك على أصحابه فأنزل الله « يأيها الذين آمنوا » الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع الفضل كثير العطاء ، يمنحه من شاء من عباده لايخص به قوما دون آخرين ، ولا شعبا دون آخر .

سبحانك قسمت حظوظك بين عبادك بمقتضى عدلك وفضلك ، وآتيتهم فوق ما يستحقون بجودك وكرمك . فاللهم آتنا من لدنك الرشد والتوفيق ، واهدنا لأقوم طريق .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) صفات الله وأسماؤه الحسنى ، وظهور آثاره فى بدائع خلقه .

(٢) الحض على الإنفاق .

(٣) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة .

(٤) ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضا حسنا .

(٥) ذم الدنيا وأنها لهو ولعب .

(٦) الترغيب فى الآخرة وتشمير العزيمة للعمل لها .

(٧) التسلية على المصايب .

(٨) ذم الاختيال والفخر والبخل .

(٩) الحث على العدل .

(١٠) الاعتبار بالأمم السالفة .

(١١) قصص نوح وإبراهيم .

(١٢) إن أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يضاعف لهم الأجر عند ربهم .

(١٣) الله يصطفى من رسله من يشاء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى صبيحة يوم الجمعة لتسع بقين من رجب الأصم من سنة خمس وستين بعد الثلثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء